

# الباب الأول

## الفصل الأول

### حياته وعصره

كان مولد الأمير شكيب أرسلان في (الشويفات) ببلبنان يوم الإثنين غرة شهر رمضان سنة ١٢٨٦ هـ الموافق الخامس والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٦٩م [١]، وهو الإبن الثاني للأمير حمود بن حسن .. الذي يرقى نسبه إلي الأمير أرسلان المتوفي سنة ١٧١ هجرية ، أما والدته فهي سيدة شركسية جلييلة.

وفي المرحلة الأولى من حياة الأمير تعلم مبادئ القراءة والكتابة مع أخيه (نسيب) علي يد معلم القرية حسبما كانت عليه عادة السراة في ذلك الحين ، وحين ذهبت العائلة تصطاف في (عين عنوب) أحضر الوالد معلماً آخرأ هو أسعد فيصل حفظهما جانباً من القرآن الكريم ، ودخل مع أخيه مدرسة الأمريكان في الشويفات فنال قسطاً من العلوم واللغة الإنجليزية . وفي سنة ١٨٧٩م كان الأمير شكيب قد بلغ العاشرة من عمره ، فدخل الشقيقان (مدرسة الحكمة) في بيروت ، وهي التي أسسها (المطران يوسف الدبس) رئيس أساقفة الطائفة المارونية ، وتلقى الأمير فيها دروس العربية علي يد الشيخ عبد الله البستاني ، وفيها تعلم الفرنسية والتركية ، وظهرت نباشير شاعريته وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وكان في سنى دراسته مبرزاً مع أخيه علي أقرانهما ، فلما زار مدرسة الحكمة الإمام محمد عيده ، وكان منفيأ في بيروت - إثر ثورة عرابي - قدم إليه الفتى علي أنه مفخرة إخوانه ، فقال الإمام فوراً : إنني أعرف إسمك وستكون من أحسن الشعراء وكانت هذه الشهادة أعلى مايطمح إليه شاب في مثل سنه لذلك الزمان [٢] . بعد (مدرسة الحكمة) دخل الشقيقان نسيب وشكيب (المدرسة السلطانية) في بيروت سنة ١٨٨٧م ، وكان شكيب قد بلغ الثامنة عشرة من عمره ، وحضر مع أخيه درس مجلة الأحكام العدلية علي الإمام محمد

[١] ذكر شكيب نفسه تاريخ ولادته في مواقع عدة من كتبه ومنها روض الشقيق ص ١٧

[٢] د. سامي الدهان ، شكيب أرسلان : حياته وأثاره ، دار المعارف ، صفحة ٦٧ .

عبده ، فأحبه الفتى ولازم أستاذه الشيخ في مجالسه الخاصة ، وتوثقت عرى صداقة متينه بين الإمام وأسرة شكيب [١] .

وفي سنة ١٨٩٠ ، كان شكيب قد بلغ الحادية والعشرين من عمره والأجل قد وافي والده ، وقد عجلت دروس الإمام محمد عبده في ظهور طموح الفتى شكيب أرسلان لأن يتحمل مسؤوليته وأن يصبح زعيماً من زعماء الإصلاح في العالم الإسلامي . وهكذا يسافر الأمير شكيب أرسلان إلي مصر ليجاور الشيخ محمد عبده العائد إلي الوطن بعد سنوات المنفى ، ويتعلم منه ويتصل من خلاله بزعماء الوطنية وقادة الفكر والأدب والسياسة فيعرفه سعد زغلول ، ويستكتبه الشيخ علي يوسف صاحب جريدة ( المؤيد ) التي كانت ملتقى الأقطام الكبيرة في زمنها ، ويتصل بشيخ العروبة أحمد زكي باشا والسيد رشيد رضا صاحب ( المنار ) ويشارك هؤلاء علي صغر سنه - في مناقشة الهموم الإسلامية ، ويلمس عن قرب الأخطار التي تتهدد عالمه الإسلامي ، ويلم بخيوط التآمر الغربي علي الخلافة الإسلامية فيشتد شوقه للقاء جمال الدين الأفغاني لينهل من ينبوع ويستقي منه فيروي ظمأ نفسه وغلبل روحه ، ويقف علي كثير مما كان يعتلج في قلبه من الأسئلة ، وبالفعل سافر إلي باريس ومنها إلي الأستانة سنة ١٨٩٢م ، عاصمة الخلافة العثمانية وهو في الثاني والعشرين من عمره فنفض أمامه جملة مشاهداته في مصر وفي الغرب ومدار في خلدته عن الشرق والإسلام وموقف الاستعمار والتبشير منهما ، فأعجب به جمال الدين الأفغاني كما أعجب به محمد عبده من قبل وقال له ( أنا أنهى أرض الإسلام التي أنبتتكم ) [٢] .

### دفاع الأمير عن الخلافة العثمانية

وعاد الأمير شكيب أرسلان إلي بيروت بعد أن طاف في أوروبا ودار الخلافة ومصر يحمل راية الدفاع عن الخلافة العثمانية لأنها دولة الإسلام التي تحيط بها الدول الإستعمارية من كل جانب وتقتصص أطرافها ، وتتقلب أشداقها شوقاً لإبتلاع ولاياتها ، ولا تتورع في الإيقاع بينها وبين شعوبها ، فأتخذ ديدنه الدفاع عن الخلافة العثمانية بعد أن وقف علي

[١] روض الشقيق في الجزل الرقيق ، وهو ديوان نسيب أرسلان ، جمعه وقدم له وعلق عليه وأردف بنسب

الأسرة الأرسلانية شكيب أرسلان ، مطبعة ابن زيدون بدمشق ط١ سنة ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٥م ، ص ١٩ ، ٢٠ .

[٢] د. سامي الدهان ، مرجع سابق ، ص ٧٠ .

دساتر الإستعمار ، وعرف مالم يعرفه قومه من خطط الإستيلاء علي بلاد العرب والمسلمين ، وفضل أن يقف إلي جانب بني عثمان في نضالهم ضد الغرب إلي أن تتجلى غماتهم لئلا يتفرق الصف في الشرق الإسلامي وليكون معهم في الحرب ضد التبشير وتفارقة الصفوف .

ولذلك كان موقفه كموقف جمال الدين ومحمد عبده في نصره العثمانيين يختلف عن موقف كثير من زعماء لبنان آنذاك [١] الذين أغرتهم دعوة الدول الغربية البراقة لإنفصال العرب عن الخلافة ، وصرخ شكيب بأعلى صوته وخطب في كل محفل وكتب في كل صحيفه بأن البديل عن الخلافة ياعرب هو الإستعمار .

وإذا عدنا إلي كتابات عصر الأمير شكيب وقبل الحرب العالمية الأولى لوجدنا أن شكيب لم يكن وحده الموالي لتركيا ، فموالاته تركيا لم تكن في حقيقة الأمر إلا تمسكاً بخليفة المسلمين الذي يلي أمرهم ويجمع شملهم ، وأن الخروج عليه ومهاجمته لم يكن يعني في إفهام كثرة المعاصرين - في أقطار إسلامية كثيرة كصير والعراق وسوريا - إلا موالات المستعمرين أعداء المسلمين [٢] ، وهذا لا يعني أن الأقاليم العربية كانت راضية عن أسلوب الحكم العثماني تماماً بل كانت تحس بما ينطوي عليه هذا الحكم من مواطن الضعف ولكن سبيلها في معالجة الضعف لم تكن الثورة أو الإنفصال بل الدعوة إلي الإصلاح وإلى المساواة في الحقوق بين العرب والترك ، إن الكثرة الغالبة من سكان العالم العربي لم تكن تفكر في الإستقلال . أما قادة العمل السياسي وأكثرهم من تلاميذ الأفغانى فكانوا يدعون إلي تقوية الدولة العثمانية عن طريق الإصلاح الإداري واللامركزية وتصحيح العقائد والإعتصام بالرابطة الإسلامية والإسترشاد بتعاليم الإسلام النقية من الشوائب ومن أشهر هؤلاء المصلحين الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) ومحمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥) [٣]. فهذا الشيخ الإمام محمد عبده يلخص دعوة أستاذه الأفغانى وغايته من جهاده طوال حياته فيقول : " أما مقصده السياسي الذي وجه إليه أفكاره وأخذ علي نفسه السعي إليه مدة

[١] د. سامي الدهان ، مرجع سابق ، ص ٧٠

[٢] الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، د. محمد محمد حسين ج ١ - ص ٩

[٣] نكية الأمة العربية ، محمد الخير عبد القادر ، ص ٦٨

حياته وكل ما أصابه من البلاء أصابه في سبيله فهو إتهاض دولة إسلامية من ضعفها وتبنيها للقيام علي شئونها فيعود للإسلام شأنه وللدين الحنيفي مجده ويدخل في هذا تتكيس دولة بريطانيا في الأقطار المشرقية وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الإسلامية .. [١] .

وإصلاح الأمة في رأى محمد عبده " إنما يكون برجوعها إلي قواعد دينها والأخذ بأحكامه علي ماكان في بدايته وإرشاد العامة بمواعظه الواقية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق وإتقاد نيران الغيرة وجمع الكلمة وبيع الأرواح لشرف الأمة " [٢] .

وينفي السيد رشيد رضا عن العرب تهمة العمل للإنفصال عن تركيا قبل الحرب العالمية الأولى وأثناء خلافة السلطان عبد الحميد الثاني ، ويوضح الأسباب التي دعت العرب إلي المحافظة علي وحدة الدولة العثمانية فيقول " إنما كان السبب الصحيح لسكون العرب وسكوتهم عن طلب إستقلالهم وتجديد دولة لهم هو الإسلام وأوربة . دين الإسلام وسياسة دول أوربه سببان مستقلان أو سبب واحد مركب لكل من جزئيه تأثير خاص في صرف العرب العثمانيين عن السعي للإستقلال والحق أن الباعث الأخير لإعتراف أكثر المسلمين بخلافة سلاطين الترك هو كونهم أمسوا حصناً لبقية البلاد الإسلامية في وجه أوربة " [٣] .

لم يكن الأمير شكيب أرسلان وحده الموالي للدولة العثمانية من العرب ، بل كان يمثل رأى عقلاء العرب الذين كانوا لايجهلون مطامع الدول الأجنبية في بلادهم ، ولم يكن يخفي عنهم تصميم أوربا علي تقسيمها ، وأنه لاعهد للدول المسيحية بإزاء المسلمين مهما عاهدت ..

" إلا أن الإنجليز تمكنوا قبل الحرب العامة من إستجلاب كثير من ناشئة العرب ، منهم من إستجلبوهم بالمنافع الخاصة ، ومنهم من إستجلبوه بطريقة الإنفاع ، وأوهموا العرب أنهم إنما يريدون ليجددوا دولة عربية كدولة بني العباس أو دولة بنى أميه مثلاً ، ويساعدوا العرب علي تجديد مجدهم القديم وعلي عمادة بلادهم التي لم يحسن الترك إدارتها ، ولا عمادتها .

[١] مقدمة محمد عبده ، رسالة في إبطال مذهب الدهريين ، بيروت ١٣٠٣ هـ ، ص ٩

[٢] العروة الوثقى : العدد الثالث ، باريس ٢٧ مارس ١٨٨٤ م ، ص ٣

[٣] المنار ج ١ م ٢ - ١١ شوال ١٣٣٥ هـ / ٣٠٩ يوليو ١٩١٧ م ، ص ٤١-٤٢

فصار بين العرب حزب غير قليل ينزعون إلى الانفصال عن الدولة قلباً وقالباً متوقعين لذلك أول فرصة . ولا يمكن أن يقال أن هذا كان رأى الجماهرة من الأمة العربية ، بل في الحقيقة كان عقلاء العرب يفقهون أنه إذا وقع الانفصال بين العرب والترك تسقط بلاد العرب تحت حكم الإفرنج ، فلذلك كانوا يختارون البقاء تحت حكم الدولة العثمانية خوفاً من حكم الأجانب ... " [١] .

وإلى جانب الأيدى الإستعمارية التي كانت حريصة على قصم الروابط القائمة بين العرب والترك ، جاءت سياسة جمعية الإتحاد والترقي - لاسيما بعد وقوعها تحت الدعوة الطورانية - ومحاولاتها لتريك الأقاليم العربية وإحياء العصبية الطورانية والكيد للإسلام ومساندة الصهونية لتحقيق أطماعها في فلسطين عوامل أساسية في تحويل إتجاه القضية العربية علي عهد الأتراك الإتحاديين نحو الاستقلال ، وساعد علي ذلك الهزات العنيفة التي أصابت الدولة العثمانية في ذلك العهد بين عامي (١٩٠٨ و ١٩١٣ ) والتي بدأت بمحاولة السلطان عبد الحميد إسترداد مركزه والقضاء علي جمعية الإتحاد والترقي ولكن محاولته لم تنجح وإنتهت بعزله ونفيه في أبريل سنة ١٩٠٩م وخلفه الأمير رشاد " محمد الخامس " ولكن السلطة الحقيقية ظلت في أيدي زعماء الإتحاديين [٢] .

ويجدر بنا هنا أن نقف قليلاً لنتبين موقف الأمير شكيب أرسلان من أحد الشخصيات الرئيسية التي ثار حولها جدل عظيم في عصر الأمير ومن بعده ، وأقصد بهذا السلطان عبيد الحميد الثاني الذي تولى أمر الخلافة سنة ١٢٩٤ هـ .

### موقف الأمير شكيب أرسلان من السلطان عبد الحميد :

السلطان عبد الحميد الثاني هو أحد الشخصيات الرئيسية التي دارت حولها أحداث الخلافة فالقيت عليه التهم جزافاً ، فوصفوه بالإستبداد وأنه ( السلطان الأحمر ) وغيرها من الصفات التي روجها أعداؤه وخصومه من الداخل والخارج ولا ننسى أن وكالات الأنبياء والصحافة التي سيطرت عليها العناصر اليهودية والصليبية قد تزعمت حركة تشهير واسعة

[١] تعليقات الأمير علي ابن خلدون ، شكيب أرسلان ص ٣٤١

[٢] نكبة الأمة العربية ، مرجع سابق ، ص ٨٣

النطاق ، أخذت ترددها بتكرار وإلحاح حتى صارت وكأنها حقائق [١] . ولقد كان الأمير شكيب أرسلان من القلائل الذين أنصفوا السلطان عبد الحميد ، ودافعوا عن أخلاقه وسياسته وإدارته وتحدث عن نفاذ بصيرته ، ووحدة ذكائه ، وإخلاصه لدينه وأمنه .

ومن القضايا التي إتخذها أعداء السلطان عبد الحميد وسيلة للطعن في إدارته ، مسألة إستكثار السلطان من الجواسيس ، حتى زعموا أن الحل والعقد صار بأيدي هؤلاء الجواسيس لكثرتهم وحصولهم علي الخطوة عنده .

ويرد الأمير هذه التهمة عن السلطان عبد الحميد فيقول " وليس من الصحيح أن السلطان كان يعمل بموجب تقاريرهم كما هو شائع ، بل كان يرمى أكثرها ولا يصدق ما فيها ، ولكن اهتمامه بقضية أخبار الجواسيس ألقى الخوف في قلوب الرعية وصارت في قلق دائم ، وأصبحت الناس تبالغ في الروايات عن الجواسيس فساعت سمعة الحكومة ، وسخط الرأي العام علي هذه الحالة ، وبرغم ماكان السلطان يعفو ويصفح ويمنح ، كانت سمعته بعكس ماكان يفعل " [٢] .

وينفي الأمير شكيب أرسلان أن تكون إدارة السلطان عبد الحميد هي المسؤولة عن جميع الخطوب التي أصابت الدولة في عهده ويوضح الأسباب الحقيقية وراء ماأصاب الدولة العثمانية في ذلك العهد فيقول " خطوب المملكة كانت لها أسباب داخلية وخارجية لاتذكر قصة الجواسيس في جوانبها شيئاً . فأما العوامل الداخلية فهي إنحطاط درجة التعليم عما يجب أن تكون ، وإستيلاء الجهل ، وإنقسام سكان المملكة إلي أقوام شتى كل منها له هدف غير هدف الآخر ، ومنها ما هو عدو عامل لايرضيه إلا زوال الدولة العثمانية . ثم ما وقر في قلوب الناس أجمعين من قرب أجل هذه الدولة فصارت أشبه بالمرريض الذي إنقطع الأمل من شفائه " [٣] .

[١] د.مصطفى حلمي . الأسرار الخفية وراء الغاء الخلافة العثمانية ص ٩٦ دار الدعوة ١٩٨٥م.

[٢] تعليقات الأمير شكيب علي مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٣٤

[٣] المرجع السابق، ص ٣٣٤

"فأما العوامل الخارجية فهي مطامع الدول الأوربية في أجزاء هذه السلطنة كل دولة منهن تحب أن تترث شقصاً من هذه التركة فهي تدس الدسائس في البلاد التي هي مطمح نظرها حتي تتوصل منها إلي مآربها " [١] .

"وكان السلطان عبد الحميد علي وعى بالمخاطر الخارجية ونوايا الدول نحوه فكيف يجابه هذه الدول بمفرده ؟! . لقد إستولى الروس على بعض ولايات آسيا الوسطى العثمانية ، وإستولي الإنجليز علي الهند وسعوا لتأمين سلامة الطريق إليها ، كما ولدت أمريكا دولة فتية ، وإننظم يهود العالم وسعوا عن طريق المحافل الماسونية في سبيل الأرض الموعودة . أورد السلطان عبد الحميد هذه الحقائق جوله في مذكراته ثم أعقبها بقوله ( لم أكن أستطيع الوقوف أمام هذه القوى بمفردي ) [٢] .

ويذكر الأمير شكيب أرسلان كيف إستطاعت الدول الأوربية والجمعيات المناوئة للحكم العثماني أن تتسلل إلي داخل الدولة عن طريق كثير من رجالات الأتراك المتشبعين بمبادئ الحرية الذين هجروا بلادهم وأقاموا بباريس وصاروا ينشرون نشرات ينتقدون فيها الحكم الحميدي ، ويبثون روح الثورة بين الناشئة فكان السلطان يجتهد في إسكات هذه الفئة التي كانت تشوه سمعته في العالم ، خاصة أنه كان يعلم أن الروس والفرنسين والإنجليز حاولوا إسقاط عمه السلطان عبد العزيز - بواسطة عملائهم - في نظر الشعب بالشائعات فنجحوا بذلك في تمزيق الجيش والأسطول لتمزق العلاقات بين ضباطه حيث كان البعض يؤيد الأسرة المالكة والآخر يعارضها. [٣] .

"ولما كانت الجمعيات الأرمنية بطبيعة الحالة تميل إلي إسقاط السلطان عبد الحميد مدت أيديها إلي هؤلاء الأتراك الذين كانوا قد هجروا أوطانهم إلي أوربا وشرعوا في التحريك لأجل إعلان الحكم الشورى في تركيا . وكان بعض المسيحيين من سوريا مشتركين أيضا في هذه الحركة ، وكل فئة من هذه الفئات كانت لها أغراض غير أغراض الأخرى

[١] تعليقات الأمير شكيب علي مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٣٥

[٢] الأسرار الخفية ، مرجع سابق ، ص ٩٨

[٣] الأسرار الخفية ، مرجع سابق ، ص ٩٩

في الحقيقة ، ولكنها كانت تجتمع في نقطة واحدة وهي ؛ مقاومة السلطان ، والعمل لإسقاطه " [١] .

## ظهور جمعية الإتحاد والترقي

وفي هذه الحقبة التاريخية الهامة ، يروى الأمير شكيب كيف تكونت ( جمعية الإتحاد والترقي ) السرية ، من بعض الشبان الأتراك في سلانيك ، وأخذوا يجتذبون إلي جمعيتهم كل الوطنيين المخلصين الذين قدروا علي إجتذابهم برغم شدة المراقبة ، حتي أن بعض المستخدمين في الحكومة إنضموا إلي هذه الجمعية ، ويشير الأمير إلي إجتماع أعضاء الجمعية في المحافل الماسونية ، وإلي أن معظم إجتهاد هذه الجمعية السرية كان متوجهاً إلي إستجلاب الجيش حتي تصير في أيديهم القوة اللازمة لإخلع السلطان .

وكانت دعوة أعضاء هذه الحركة في بدايتها ، وحجتهم في إقناع ضباط الجيش أن هذه العصابات البلغارية واليونانية إنما تشاغب لأجل الحصول علي إدارة حسنة يستريح في ظلها السكان وهذه الإدارة غير ممكنة مادام السلطان عبد الحميد علي عرش السلطنة ، فأما إذا أمكن خلعه ، وجعل الحكم في السلطنة دستورياً شورياً كما هو في سائر الممالك المتقدمة فإن جميع هذه المشاغبات تنتهي من نفسها ، وهكذا تتجوا السلطنة العثمانية من خطر السقوط المحقق بها [٢] .

ويرد الأمير شكيب علي دعوة الإتحاديين بأنه إدعاء غير صحيح " بل حقيقة الحال أنه سواء إصطلحت الإدارة العثمانية أم لم تصطلح فالبلغار إنما يجتهدون في ضم البلاد المأهولة بالبلغار إلي مملكتهم ، واليونان إنما يسعون في ضم البلاد التي أكثرها منهم إلي مملكتهم ولن يرضوا بالبقاء تحت حكم الأتراك ما استطاعوا إلي ذلك سبيلاً " [٣] .

ويذكر الأمير أن الشبان الأتراك الذين إنضموا إلي جمعية الإتحاد والترقي فيما بعد منهم من كان يؤمن بأقوال العصابات اليونانية والبلغارية ، ومنهم من لم يكن يؤمن بها ولكنه كان يجد أن طريق النجاة لن تكون إلا بإعادة الدستور وجعل الحكم في السلطنة للشورى [٤] .

[١] تعليقات الأمير شكيب علي مقدمة ابن خلدون (مرجع سابق) ، ص ٣٣٦

[٢] ، [٣] ، [٤] تعليقات الأمير شكيب علي ابن خلدون ، ص ٣٣٩ - ٣٤٠

والحق أن جمعية الإتحاد والترقي كانت موضع شبهات منذ وقت مبكر إذ اتهمت بأنها جمعية يهودية وأن أعضاءها لم يكونوا أتراكاً ولا مسلمين ، يقول شكيب : "ولما كان الإتحاديون يتظاهرون بالتفرنج ويتساهلون بأمور الدين ، ويتكلمون أحياناً بما يخالف الشرع ؛ مال جمهور العلماء وأنصار المبادئ الإسلامية إلي هذا الحزب الذي شرع بمصادمة جمعية الإتحاد والترقي ، وألفوا تحت رئاسة الشيخ ( درويش وحدتى ) عصابة سموها ( الوحدة المحمدية ) وأخذ حزب الأحرار يمد يده إلي حزب الرجعيين ليكونا يداً واحدة علي حزب الإتحاد والترقي ، فأشتدت المعارضة في وجه الإتحاديين " [١] .

وأدى ذلك إلي نشوب الصراع بين الإتحاديين وأنصار المبادئ الإسلامية إنتهي بإنتصار الإتحاديين ودخول الجيوش المؤيدة لهم إلي العاصمة تحت قيادة شوكت بك .

ويروي الأمير شكيب أرسلان أن السلطان عبد الحميد رفض المقاومة خوفاً من حرب أهلية ، " وكان يحيط بقصر يلدز سبعة آلاف من الجيش المخلص للسلطان إلا أنهم لم يروا السلطان ناوياً المقاومة فخضعوا لمحمود شوكت باشا ، وفي ٢٦ ابريل تقرر في مجلس الأمة خلع السلطان " [٢] .

### إشتداد العصبية الجنسية

كان السلطان عبد الحميد مقاوماً شديداً للعصبية الجنسية التركية ، بل ماقتاً بطبيعته و غريزته مقتناً كبيراً لكل عصبية جنسية أية كانت ماهيتها ، وكان يرى أن من شأن هذه العصبية أن تحول بينه وبين الوصول إلي غايته الكبرى وهي الجامعة الإسلامية [١] .

علي أن سيطرة أعضاء جمعية الإتحاد والترقي علي مقاليد الأمور في الدولة بعد ثورة ١٩٠٨م ثم عزلهم للسلطان ونفيه في أبريل ١٩٠٩م وتولية الأمير رشاد ( محمد الخامس ) خلفاً له مع إحتفاظ الإتحاديين للسلطة الحقيقية في أيديهم ، قد فتح الباب أمام العصبية الجنسية

[١] المرجع السابق ، ص ٢٤٢

[٢] الأمير شكيب أرسلان : تعليقات الأمير علي مقدمة ابن خلدون ، الجزء الأول ، ص ٢٤٥

[٣] حاضر العالم الإسلامي ، ستودارد الجزء ٤ ص ٨٠

التركية فإنطلقت تلك العصيبة التي عرفت ( بالدعوة الطورانية ) [١] من عقالها. ولم يكن قادة جمعية الإتحاد والترقي متأثرين بهذه الدعوة الطورانية فحسب بل كانوا يؤيدونها ويقدمون لها الإعانات المالية (وتسمى إعانات الملية التركية ) وكان كبار قادة الإتحاديين أعضاء منتظمين إليها [٢] ، ومن هذه القاعدة إستمدوا سياسة تترك الشعوب العربية والشعوب العثمانية الأخرى [٣] . وكان لهذه السياسة الأثر العظيم في تحويل إتجاه القضية العربية نحو الإستقلال علي عهد الأتراك الإتحاديين ونمو العصيبة الجنسية العربية .

وفي سنة ١٩١١ . إعتدت إيطاليا علي طرابلس الغرب ( ليبيا ) فغضب شكيب من هذا العدوان ، وكتب إلي مختلف الجهات يحرض علي نجدة العرب في طرابلس ، ويحس علي مدهم بالأموال والسلاح ، وأبرق إلي المسئولين في الأستانة بذلك [٤] . وفي سنة ١٩١٢ يسافر الأمير شكيب إلي طرابلس الغرب (ليبيا) ليلتحق بصفوف المجاهدين ضد الجيش الإيطالي المعتدى علي ذلك الوطن الإسلامي ، وقد خرج من هذه التجربة وقد إزداد يقناً بأن القوى الغربية الصليبية تتحالف لإنتهاك بلاد العرب قطعة قطعة ، ولأسبيل للنجاة إلا بالتمسك بالرابطة العثمانية التي تمثل العزة للإسلام والقوة للعرب وإزالة أسباب التوتر بين العرب والأتراك .

وفي سنة ١٩١٢ سافر الأمير شكيب من طرابلس إلي تركيا حيث أختير مفتشاً لبعثات الهلال الأحمر المصري فقام بمهمته علي خير وجه [٥] .

وما أن تنشب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ حتي يتخذ شكيب ببعد نظره ووعيه الإسلامي الصادق موقفاً مختلفاً لموقف زعماء العرب وقادتهم في ذلك الوقت . ولقد ظن العرب أنهم بوقوفهم إلي جانب الحلفاء ضد الألمان والدولة العثمانية سيحصلون علي إستقلالهم الكامل . ووقف شكيب يومها ضد رأي الأغلبية التي كان يتزعمها الشريف حسين

[١] الدعوة الطورانية: تهدف إلى إحياء العصيبة التركية والجمع بين العناصر التركية التترية والبلغارية

والقوقاز وهدم المدنية الإسلامية ، " نكبة الأمة العربية " ص ٨٢

[٢] المنار ، مجلد ١٩ ، ج ٤ ، ٢٨ سبتمبر ١٩١٦ ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦

[٣] محمد الخير عبد القادر / نكبة الأمة العربية / ص ٨٢

[٤] شكيب أرسلان داعية العروبة ، أحمد السرياصي ، ص ٢٩ - ٣٣

[٥] شكيب أرسلان داعية العروبة ، أحمد السرياصي ، ص ٢٩ - ٣٣

ملك الحجاز آنذاك ، فقد صرخ بأعلي صوته في المحافل ووجه الرسائل وديج عشرات المقالات قائلاً أنه لن ينصر الدول الإستعمارية علي الدولة الإسلامية مهما كانت عيوبها ، وأن علي العرب ألا يغتروا بعود الغرب لأن هدف هؤلاء أن يتخذوا العرب جسراً إلي قتل الدولة الإسلامية ليلتهموها ثم يلتهموا أجزائها العربية بعد ذلك ، واعتبر بطرابلس الغرب ومن قبلها الجزائر وتونس .

وكان من سوء حظ شكيب أن الولاة العثمانيين والباب العالي والقادة العسكريين حين عرفوا موقف العرب منهم صمموا علي مقابلة عداء بعداء [١] .

" وعينت تركيا القائد أحمد جمال باشا قائد الفيلق الرابع من الجيش العثماني والياً علي سوريا ولبنان وفلسطين والحجاز فبغى وطغى ، والجم الألسنة وأرهب الناس ، وكان يمثل النزعة الطورانية بأقصى صورها وتعصبها ، وهو من جماعة الإتحاد والترقي " [٢] .

وفي سنة ١٩١٦ وجهت تهمة الخروج علي الدولة إلي زعماء وأعضاء الجمعيات العربية في سوريا ، وحكم بالموت شنقاً علي ثلاثين منهم ، كما صدر الحكم غيابياً بالموت شنقاً علي نحو ستين ، وعوقب آخرون بالنفي أو السجن [٣] .

[١] الدكتور سامي الدمان ، الأمير شكيب أرسلان ، حياته وأثاره ، ص ٧٤

[٢] الشيخ أحمد الشرباصي ، أمير البيان شكيب أرسلان ، ج ١ ، ص ٤٤

[٣] الشيخ أحمد الشرباصي ، أمير البيان شكيب أرسلان ، ج ١ ، ص ٤٤

## موقف الأمير شكيب من الثورة العربية بقيادة الشريف حسين

يقول الشيخ أحمد الشرباصي ، " ويذهب أكثر من باحث إلى أن مأساة الشنق كانت سبباً في تعجيل الشريف حسين بن علي أمير - مكة الذي كان يفاوض الحلفاء سراً - بإعلان الثورة ضد الأتراك ، ودخول العرب في صف الحلفاء في شهر حزيران ( يونية ) ١٩١٦م ، أي بعد شهر من تعليق الشهداء علي المشانق ، ونستطيع أن نقول أن المأساة كانت أقوى تمهيد لإعلان تلك الثورة " [١] .

ولكن الأمير شكيب أرسلان ينفي نفياً قاطعاً أن تكون سياسة جمال باشا هي التي أحدثت المسألة العربية مع إقراره بأن سياسته كانت منهورة وخارجة عن دائرة المعقول في كثير من الأمور ، فيقول : " جنته الدولة جناية كبرى على نفسها وعلى العرب واخرت معاً بأن سلمته زمام سوريا مدة الحرب تسليماً مطلقاً ، مع ما في نحيزته من الإسعداد للإستبداد ، والنشوة بخمرة النهي والأمر ، فمضي في شهواته وأهوائه ، غير حاسب ولا مراقب ، ولا ناظر إلى العواقب " [٢] .

ويمضي شكيب في عرض سياسة البطش التي إتبعها جمال باشا في سوريا ثم يقول : " أما كون سياسته هذه هي التي أحدثت المسألة العربية ، ولولا قتله من قتل من كبار السوريين وأدياتهم لم يكن ثار الشريف علي الدولة ، ولا إنشق العرب علي السيك ، فليس بصحيح . إذ علاقة الشريف بالإنجليز وتحفزه للقيام علي الدولة في أول فرصة تلوح يرجعان إلي أيام السلطان عبد الحميد نفسه الذي كان يعلم ذلك ولما أخذ الإتحاديون علي يد السلطان وأجبروه علي نصب الشريف حسين أميراً علي مكة ، مكان الشريف علي قال لهم " انني أبرأ من تبعه كل ماسيعمله هذا الرجل لأنني أعرف حقيقته " [٣] . ويؤكد الأمير شكيب أن الشريف حسين كان علي إتصال بإنجلترا من قبل الحرب لعامة وانه عرض عليها أن تمد العرب بالسلاح لينقضوا علي الدولة ، ويكونوا حلفاء لإنجلترا في المستقبل ، ولكن الخارجية الإنجليزية رفضت ولم تكتم السبب في رفضها " وهو أن إنجلترا تريد هي الإستيلاء علي بلاد العرب فلا يوافقها أن تعطي جزيرة العرب سلاحاً " [٤] .

[١] الشيخ أحمد الشرباصي ، أمير البيان ، ج ١ ، ص ٤٥

[٢] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ، ص ٣٩٠

[٣] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١

[٤] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١

" ثم إن الشريف حسين راجع إنجلترا في مشروع التحالف العربي الإنجليزي لأول الحرب ، فلم يجيبوه أملاً في إستغنائهم عنه ، فلما إستتدت الحرب علي الإنجليزي شعروا بالإحتياج إلي العرب ، فعادوا إلي قبول إقتراح الشريف " [١] . وعلي هذا فان قسوة جمال في سوريا وقتله من قتل لم يكونا سببا ثورة الشريف في رأى الأمير شكيب ، بل كانت الثورة واقعة سواء قتل جمال من قتله أو لم يقتله [٢] . لذلك لم يكن غريباً أن يمتنع الأمير شكيب عن المشاركة فيما سمي بالثورة العربية الكبرى التي إنطلقت من الحجاز يقودها الشريف حسين سنة ١٩١٦م وكان موقف شكيب حينئذ عصبياً ، فقد كان ضد التيار العام ، وخارجاً علي رأى الأكثرية ، وبادياً في صورة من يريد أن يكون عثمانياً أكثر من بنى عثمان ! وإن تكن الأحداث قد جرت بعد ذلك بتحقيق ماتوعده وحذر منه [٣] .

### الأمير شكيب أرسلان والقضية العربية

وإنتهت الحرب العالمية الأولى ، ووقع ما حذر منه شكيب ونقاسمت الدول الإستعمارية البلاد العربية ونكثت بوعودها لحلفاتها العرب ، ومع دخول فرنسا لبنان وسوريا إختار شكيب المنفي ، فغادر الوطن قاصداً تركيا سنة ١٩١٧م . ويستقر الأمير شكيب أولاً في بلدة (مرسين) التركية علي مقربة من الحدود السورية ، ولكن إقامته لم تطل ، فالهزيمة التي منيت بها تركيا في الحرب ثم دخول اليونان الأراضي التركية قد زلزلت تماسك الدولة ، فكان صعود مصطفى كمال وتيار الأنتاتورية الساعي إلي التتريك الصرف وقطع الأواصر بالإسلام والشرق والتحول بدلا من ذلك نحو العلمنة والأخذ بالطريق الاوربي . ولما سقطت راية الخلافة العثمانية توجه شكيب لجمع كلمة العرب ودعي إلي وحدته ليرفع برأيها كلمة لا إله الا الله من جديد . ووضح شكيب منذ البداية الأمر لدعاة القومية العربية بأن لاوحدة للعرب إلا بالإسلام ، فهو الذي وحدهم وأن الدعوى بالوحدة العربية من أي منطلق آخر غير إسلامي باطله من أساسها " وإن العرب لم يكونوا ليتحدوا في يوم من الأيام إلا بالإسلام ولولا الإسلام لبقوا شعوباً وقبائل يقتتلون في جزيرة العرب إلي يوم القيامة " [٤] .

[١] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١

[٢] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١

[٣] الشيخ أحمد الشرباصي ، أمير البيان ، ج ١ ، ص ٤٦

[٤] شكيب أرسلان ، تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ١٦ .

وبعد حين سافر شكيب من (مرسين) إلي (برلين) واشترى هناك بيتاً أقام به سنوات ، وأخذ يجاهد بقلمه ولسانه وفكره في سبيل العروبة والإسلام [١] ، ومد يده للملك فيصل ينصره ويؤيد دعوته إلي الجامعة العربية ، حتى قال الملك فيصل لشكيب : " أشهد أنك أول عربي تكلم معي في الوحدة العربية ، وأراد أن تكون وحدة عملية " [٢] .

وفي سنة ١٩٢٢م اجتمع الزعماء العرب في القاهرة ، وشكلوا اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني ، وقرروا تأليف وفد عربي يدافع عن سوريا وفلسطين ، ويتابع المحاماة عن حقوقهما والعمل لإستقلالهما في جمعية الأمم بجنيف ، فانتخبوا الأمير شكيب سكرتيراً أول للوفد . وسافر شكيب إلي جنيف سنة ١٩٢٥م للقيام بهذه المهمة الجديدة بتكليف من قومه [٣] .

وللأمير شكيب أرسلان تراث ضخم من مئات المقالات والخطب ضمتها كبريات مجلات العصر مثل ( الفتح والشورى و المؤيد ) . وقام الأمير بأمر الوفد السوري الفلسطيني ففرع أبواب الدول وقابل المسؤولين ، ولجّح وخطب وكتب ، ونشرت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني مافعه الوفد في الغرب في كتاب عنوانه " أعمال الوفد السوري الفلسطيني من مايو ١٩٢٢م إلي أكتوبر ١٩٢٢م " [٤] .

وفي سنة ١٩٢٩م حج شكيب إلي بيت الله الحرام ، وقد بلغ الستين من عمره ، والتقي بالملك عبد العزيز آل سعود ، ووضع عن هذه الرحلة كتابه " الإلتزامات اللطاف في خاطر الحاج إلي أقدس مطاف " [٥] .

وفي سنة ١٩٢٠م قام برحلة إلي اسبانية ، وعاد فكتب كتابه " تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرة وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط " . كما بدأ يفكر في إصدار كتابه الجليل " الحلل السندسية في الآثار والأخبار الأندلسية " وأنشأ في هذه السنة نفسها مجلة بالفرنسية سماها " الأمة العربية " في جنيف [٦] جندها لخدمة أهداف أمته ، مما جعل فرنسا تعتبره

[١] الشيخ أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام ، ص ٤١

[٢] الشيخ أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام ، ص ٤١

[٣] د. سامي الدهان ، شكيب أرسلان : حياته وأثاره ، ص ٨٤

[٤] المرجع السابق ، ص ٨٤

[٥] الشيخ أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام ، ص ٥٢

[٦] د. سامي الدهان ، شكيب أرسلان : حياته وأثاره ، ص ٩١

عدوها الأول في العالم العربي .

وفي سنة ١٩٣٤ وقعت حرب بين ابن السعود والإمام يحيى ، وقررت لجنة المؤتمر الإسلامي في القدس إرسال وفد إلي جزيرة العرب ، وأختير شكيب في الوفد ، فسافر للإصلاح بين العاهلين ، وكانت له يد فضلي علي العرب في جمع الشمل [١] .

وعلي الرغم من جهاد الأمير وبذله لكل طاقته لخدمة أمته إلا أن هذا لم يسكت عنه خصومه ، فقد وقع له أن إتهمته شرزمة ضالة بأنه تواطأ مع السيد أمين الحسيني الزعيم الفلسطيني علي السير في ركاب إيطاليا لقاء مال تناوله ، ثم تبين أن التهمة ملفقة وأن ورائها الإنجليز لينالوا من سمعته ويضعفوا منزلته في قومه غير أن هذه التهمة الباطلة شغلت من وقت وجهد الأمير الشيء الكثير [٢] .

وكان لابد لشكيب أن يعيش في المنفى لأنه وجد أن عدة دول تطارده ، ففرنسا تريد الإنتقام منه لتأليه شعبي المغرب والشام عليها ، وإنجلترا تريد الإنتقام منه لإتصالاته بالوطنيين في البلدان التي تحتلها ، حتى تركيا التي لجأ إليها من قبل لم يعد بإستطاعتها إيوائه بعد أن خلعت لباس الإسلام وتعرت بالعلمانية ولجملته علي تنكر الحكام الأتراك للخلافة والإسلام ، وملك الأفغان أمان الله خان يطلب رأسه لأنه وقف ضد سياسة هذا الملك المتفرنج الذي كان يقلد مصطفى كمال في كل شيء . حتى مصر كان " الملك فؤاد " يطارده ويمنعه من دخولها [٣] .

وفي سنة ١٩٣٧ سمح للأمير بأن يزور سوريا ، فطاف ببلدانها وخطب في قومه ، وإختاره المجمع العلمي العربي بدمشق رئيساً له تكريماً له لجهاده وإكباراً ليدته . ولكن فرنسا عادت فنقضت المعاهدة التي كانت قد عقدها مع سوريا سنة ١٩٣٦م فترك شكيب رئاسة المجمع ، وعاد إلى أوروبا [٤] .

وفي سنة ١٩٣٩م أذن المسئولون في مصر له بزيارتها ، فزارها وقضى فيها نحو أربعة أشهر ثم عاد إلي أوروبا وقد بلغ السبعين من العمر [٥] .

[١] د. سامي الدهان ، شكيب أرسلان : حياته وآثاره ، ص ٩٢

[٢] د. سامي الدهان ، شكيب أرسلان : حياته وآثاره ، ص ٩٥

[٣] أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة ، ص ٤٨

[٤] أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة ، ص ٥٣

[٥] أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة ، ص ٥٣

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م خرجت فرنسا من سورية ولبنان . وتحققت أكبر أمنية من أمانى حياة شكيب وقد جاوز السادسة والسبعين من العمر ، فعاد إلي وطنه فقيراً مريضاً بعد أن وهب كل ماله وكل نبض قلبه في سبيل أمته ، ولكنه كان سعيداً يوم وصل بيروت في ٣٠ أكتوبر ١٩٤٦م فاستقبلته لبنان عن بكرة أبيها ، وتابعه عالمه الإسلامي بإعجاب وإكبار ومحبة .

وفي يوم الإثنين ١٥ من المحرم سنة ١٣٦٦هـ الموافق ٩ من ديسمبر سنة ١٩٤٦م لحق شكيب أرسلان يريه ، بعد حياة طويلة حافلة . وصلوا عليه في جامع العمرى ببيروت ثم نقلوا جثمانه إلي قريته " الشويفات " حيث دفن فيها بجوار أخيه عادل أرسلان [١] . وكان آخر مقاله للأستاذ عبد الله المشنوق ، حينما إنقني به قبل موته بأيام : أحمد الله عز وجل الذى سهل لى أن أفارق الحياة على أرض هذا الوطن الذى أحببته ، وأنا سعيد أن أدفن في تربة طاهرة لاتترفرف فوقها راية أجنبية ، وأنا سعيد أن ألقى وجه ربي الكريم ، فأعيد هذه الأمانة إلي بارئها بعد أن تحققت أحلام طفولتي في هذه الجامعة العربية حرسها الله . وسأخبر رفاقي في الجهاد أن تضحياتهم لم تكن عبثاً . وتحدرت من عيني الأمير دمعتان ، ونهض واقفاً وجذب يد الأستاذ المشنوق وقال له : لي وصية واحدة أود أن أوصي بها فهل تعدني بأن تنقلها إلي العالم العربي بعد وفاتي ؟ ، قال : نعم ، وهنا طوقه شكيب بذراعيه المرتجفتين وقال بصوت كانت تخنقه العبارات : أوصيكم بفلسطين [٢] .

[١] أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العربية (مرجع سابق) ، ص ٥٥

[٢] لماذا تأخر المسلمون ؟ نظرة عامة عن أمير البيان ، ص ١٩ ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .  
عمر على الطاهر ، ذكرى الأمير شكيب أرسلان ، ص ٥٥ - ٥٦ ، بيروت ١٩٧٧م ، ص ٣ .

## الأمير شكيب أرسلان

### نسبه وأسرته

ينتسب الأمير شكيب إلى أسرة آل أرسلان ، وهي أسرة عريقة من سلالة القبائل العربية الذين عرفوا في التاريخ بالمناذرة ملوك الحيرة ، وكان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور قد طلب اليهم أن تتزح بعض بطون قبائلهم إلى لبنان لحماية السواحل من بغتات الروم وتأمين الطرق من بعض السكان هناك الذين عرفوا بالمردة ، واعتادوا نهب القوافل والغارة على القرى والمدن ومساعدة الروم في حرب المسلمين ، فصدع اثنان من زعماء القبيلة هما الأمير المنذر بن مالك وأخوه الأمير أرسلان لطلب الخليفة ورحلا بجموعهما سنة 142 هـ إلى جبال لبنان بعد أن أقاموا عدة أيام في وادي تيم حيث كان ينزل بنو عمومتهم ، وتفرقت هذه الجموع العربية في جبال لبنان ، وكانت لهم مواقع مع المردة كان الانتصار فيها للعرب فذاع أمرهم وقوى شأنهم وأقرهم الخلفاء العباسيون على إمارة هذه الأقاليم التي صارت إقطاعات لهم [١] .

واستمرت هجرة القبائل العربية إلى لبنان وحواران ووادي اليتيم ، واقتسم إمارة منطقة حواران بنو شهاب القرشيون والأمراء التتوخيون [٢] .

وفي عام ٨٧٥ هـ هزم الأمير النعمان بن عامر الأرسلاني جحافل المردة على نهر بيروت هزيمة منكرة جعلت الخليفة العباسي المتوكل يكتب إليه يمدحه ويقره على ولايته له ولذريته من بعده ويرسل إليه سيفاً ومنطقة وشاشاً أسود شعار العباسيين [٣] .

### دخول آل أرسلان في الدعوة الفاطمية

وفي سنة ٣٥٨ هـ قامت جيوش المعز لدين الله الفاطمي بقيادة جعفر بن فلاح لفتح بلاد الشام .

[١] د. محمد كامل حسين ، طائفة الدروز ، دار المعارف ، ص ٨

[٢] المرجع السابق ، ص ٩

[٣] المرجع السابق ، ص ٢٣

وبعد أن استولى على الرملة وطبرية كتب الى الأمير سيف الدولة المنذر بن النعمان عامر أمير بيروت يدعوهُ الى بيعة المعز ، فاستشار سيف الدولة عشيرته فأجمعوا على مصانعته حتى يزوا ما يكون منه ، فلما استولى جعفر بن فلاح على دمشق سار إليه سيف الدولة وزعماء قومه وبايعوه للمعز لدين الله ، وبذلك دخلت هذه القبائل في الدعوه الفاطمية [١] .

وأقر الفاطميون الأمراء الأرسلايين علي مابأيديهم من الولايات الإقطاعية وأصبحوا من شيعة الفاطميين - مع أن الأمير سيف الدين المتوفي سنة ٣٦٠ هـ كان من أعلم أهل زمانه بمذهب مالك وله في ذلك كتاب " تيسير المسالك إلى مذهب مالك " كما كان علي علم تام بأصول مذهب الأوزاعي وله في ذلك كتاب " الأقوال الصحيحة في أصول مذهب الأوزاعي " [٢] .

ثم أخذت الدعوة الفاطمية تنتشر في بلاد الشام بفضل الدعاية المنظمة التي وضع الفاطميون أسسها ، وكانت قبائل تنوخ في بلاد المعرة وفي وادي التيم وجبال لبنان أسرع أهالي الشام قبولاً لها وبالرغم من وجود بعض حركات ثورية في الشام كان الغرض منها الرجوع إلى الدعوة العباسية فإن كل هذه الحركات باءت بالإخفاق الي أن جاء الحاكم بأمر الله الفاطمي وأعلن مذهبه الجديد ، فكان أهل وادي التيم وهوران وجبال لبنان هم الذين تقبلوا هذه العقيدة وظلوا يحافظون عليها الي الآن .

وعلي الرغم من تمذهب آل أرسلان وأهل وادي التيم وهوران وجبال لبنان او من اصطلاح علي تسميتهم (بالدروز) بهذه العقيدة إلا أن ذلك لم يحل دون قيامهم بأعمال بطولية مع إخوانهم المسلمين في الحروب الصليبية مما يذكر لهم في التاريخ في صفحات الفخر والاعتزاز . ففي سنة ١١٠٠ م حارب أهل وادي التيم جيوش (بلدوين) الفرنسي في مغازاة نهر الكلب وفي السنة التي تليها حاربوا جموع ريموند . وفي سنة ١١١٠ م حاول بلدوين فتح بيروت وحاصرها برا وبحرا ودافع عنها الامير شجاع الدولة الأرسلائي ، فاضطر بلدوين إلى أن يستعين بالمرتدة وبالإمارات الصليبية في شمال لبنان وفلسطين ، وتكاثر جموع الصليبيين والارسلانيون يدافعون عن بلادهم دفاعا مجيدا واستمر القتال زهاء شهرين

[١] طائفة الدروز ، مرجع سابق ، ص ٩

[٢] المرجع السابق ، ص ٢٤

إلى أن سقطت المدينة بعد أن قتل عدد كبير من الأمراء الأرسلايين .  
 وفي سنة ١١٢٦ م بدأ الأمير مجد الدين ينظم صفوفه ( جموعه ) وأخذ يهاجم بهم  
 الصليبيين حتى قتل فتولي الإمارة بعده أبو العشائر ناهض الدين بحتّر بن عضد الدولة  
 الذي سار سنة ١١٥١ م ووقع بالصليبيين هزيمة منكرة عند رأس التينة [١] .  
 وفي حروب التتار - وخاصة في موقعة عين جالوت - كان الأمير زين الدين صالح  
 الأرسلائي يقود رجاله بجانب المماليك حتى تم الفوز للمسلمين .  
 وفي سنة ١٥١٦ م قام السلطان سليم الأول العثماني بغزو الشام ومصر ، واتضم إليه  
 آل معن وآل أرسلان برجالهم من الدروز ؛ فاعترف العثمانيون لهم بالإمارة في لبنان وتولي  
 الأمير جمال الدين الأرسلائي [٢] بلاد الغرب واليمن والجرد ، ثم أصبح أميراً علي جبل  
 لبنان الجنوبي .

من هذه اللمحة التاريخية عن أسرة آل أرسلان العريقة ، تتضح سياستها - التي تمثل  
 سياسة الدروز في كل العصور - وهي سياسة عربية اسلامية قبل كل شيء . كما يظهر  
 نسبهم العربي الأصيل بخلاف من زعم غير ذلك ، وقد بلغ من حرصهم علي اثبات نسبهم  
 أن كل أمير منهم كان يذهب الي النقّات من العلماء والشيوخ الأجلاء ليكتب له سجلاً ينسبه ،  
 وقد نشر المرحوم شكيب أرسلان هذا السجل في آخر ديوان شقيقه نسيب أرسلان وهو  
 الديوان المعروف " بروض الشقيق في الجزل الرقيق " .

والحق أن الأمير جهد جهداً كبيراً في كتابة هذا النسب فعاد الي مصادر التاريخ يتتبعها  
 ويناقشها ويعالج نصوصها علي عادة القدماء لينتهي الي مثل الثقة في بيان تاريخه وتاريخ  
 أهله وختم بقوله : " والقارئ يرى اننا تحرينا جهد الإستطاعة وعرضنا الروايات والآراء ،  
 ولم يكن استقصاؤنا في هذا البحث إلا لأجل تمحيص ناحية من نواحي التاريخ العربي هي  
 أخبار عرب لبنان والسواحل الشامية من زمن التاريخ ، وكذلك جريا علي شتنة العرب في  
 حفظ أنسابهم والتتقيب عن أخبار أجدادهم ، والناس مأمونون علي أنسابهم ، وفوق كل ذي  
 علم عليهم " [٣] .

[١] طائفة الدروز ، مرجع سابق ، ص ١٠

[٢] يبين الأمير سبب انضمام قومه للسلطان سليم في مقدمة ابن خلدون ، ص ١٧٥

[٣] شكيب أرسلان ، روض الشقيق ، ص ٢٦٢

oboeikandi.com

## الفصل الثاني

### طائفة الأمير شكيب أرسلان

#### مكآة آل أرسلان في المجتمع الدرزي

إسم الدرور كان - ولا يزال - مآار مناقشات عديدة بين الكتاب والمؤرخين ، فالمعروف أن هؤلاء الأقوام لا يحبون أن يلقبوا بهذا اللقب ويستكرون أن ينسبهم أحد الي الداعي نوشنكين الدرزي - الداعي الفاطمي - والذي يرمونه بالاحاد والخروج عن دعوتهم وعقيدتهم ، ويطلقون علي انفسهم إسم (الموحدين) ، وهو الاسم الذي عرفوا به في كتبهم المقدسة [١] .  
والدرور ينقسمون مدنيا الي امراء ومشايخ وعمامة ، الأمراء هم آل أرسلان بلبنان ، وهم الذين يتولون الزعامة السياسية يشاركهم فيها الجمبلاطية وهؤلاء من المشايخ ومن المشايخ ايضا اليزبكية والشقرا بلبنان .

اما الدرور بسوريا فيتولي الزعامة السياسية فيهم بيت الأطرش ويتولي الزعامة الدينية بيتا الهجري والحلبى ، " وهم معتبرون رسميا من المسلمين " ولكن لاتسرى عليهم قوانين واحكام المحاكم الشرعية بل لهم قاضي مذهب يفصل بينهم في أحوالهم الشخصية [٢] .

#### طبقات المجتمع الدينية عند الدرور

هذا التقسيم الذي ذكرناه لمجتمع الدرور من الناحية المدنية ، اما من الناحية الدينية فهم ينقسمون الي عقال أو اجاويد أى الذين لهم الحق في معرفة شىء من العقيدة السرية ، وهم ثلاثة أقسام رؤساء وعقلاء وأجاويد ، ويسمي رئيسهم الديني (شيخ العقل) ، فهؤلاء (العقل) هم طبقة رجال الدين الدارسين له الحفاظ عليه ، وهم أهل الوعظ والإفتاء ويدهم رحمة الموتى أو تركهم خارجها [٣] .

والعقال في المجتمع الدرزي يعرفون بعمائمهم ولبس القباء الأزرق الغامق ويطلقون لحاهم ، ولهم نفوذ كبير علي الدرور ، وهم موضع الهيبة والخشية [٤] .

[١] طائفة الدرور تاريخها وعقائدها ، د . محمد كامل حسين ، ص ٦

[٢] عبد الله الأمين ، دراسات في الفرق والذاهب القديمة المعاصرة ، ص ١٤٣ :

[٣] المرجع السابق ، ص ١٥٣

[٤] د . محمد كامل حسين ، طائفة الدرور (مرجع سابق) ص ٢٩

والقسم الثاني من طبقات المجتمع الدرزي وفي درجة دينية متواضعة عن طبقة العقال تأتي طبقة الجهال : أى عامة الناس ، وهؤلاء ليس لهم الحق في معرفة أسرار الدين " علي أن طبقة الجهال يسمح لهم بأن ينتقلوا إلى طبقة العقال بعد امتحان عسير شاق يقوم علي ترويض النفس وإخضاع شهواتها مدة طويلة " [١] . وبعد أن يعطى الدين يصبح من الأجويد ويتحتم عليه عدم التفريط فيه أو التصريح به ويجب عليه كتمانها عن غير أهله .  
والنساء في المجتمع الدرزي ينقسمن أيضا الي عاقلات وجاهلات مثل الرجال تماما لافرق بين الرجل والمرأة ، والنساء العاقلات يلبسن النقاب وثوبا اسمه ( صاية ) علي أن الغالب علي نساء الدروز هو الحجاب .

وأماكن العبادة عند الدروز تعرف بالخلوات ( جمع خلوة ) ويجتمع فيها العقال في مساء كل يوم جمعة لسماع ماينلى عليهم من الكتاب المقدس ، " وبعد تلاوة المقدمات يخرج من الخلوة الطبقة الدنيا من العقال ، ثم بعد تلاوة بعض الرسائل البسيطة التي ليس بها تأويلات تخرج الطبقة الثانية بحيث لايبقي الا رجال الدرجة الأولى الذين لهم وحدهم الحق في سماع الاسرار العليا للعقيدة ، أما الجهال فلا يسمح لهم بحضور هذه الخلوات او بسماع شىء من الكتب المقدسة الا في يوم عيدهم وهو يوافق عيد الأضحى عند المسلمين ؛ " [٢] .

### سرية العقائد الدرزية

ومن الحديث عن العقال والجهال ونظام الخلوات السرى يتجلي لنا مدى حرص الدروز علي سرية معلوماتهم الدينية وحرصهم علي كتمانها وعدم التصريح بها ، لذلك فان الدروز يصنفون ضمن الفرق الباطنية لإيمانهم بالثقية والقول بالباطن ، وبسرية العقائد . " فالعقيدة الدرزية تأخذ السرية على أنها مسلك ونهج أساسي وأصل من أصول عقيدتهم ، وليست ثقية في المعنى والقصد العادى الشائع وهو الخوف والاستتار من المكروه ، فهي كما يزعمون وقاية للحقيقة والمستضيين بها ولمن لا يستطيعون دراكها " [٣] . وقد نشأ عن هذه السرية

[١] المرجع السابق ، ص ١٥٣

[٢] د. محمد كامل حسين ، طائفة الدروز ، مرجع سابق ، ص ٢٨ - ٢٩

[٣] الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ( د. محمد أحمد الخطيب ، ص ٢٩٥ ) - أضواء علي مسلك

التوحيد ( د. سامي مكارم ، ص ٩٧ ) - وعقيدة الدروز ( عرض ونقد د. محمد أحمد الخطيب )

التي تحيط مذهبهم كثير من الحدس والتخمين والإشاعات فيما يتصل بعقائدهم وعباداتهم ، يقول الشاعر خليل مردم بك رئيس المجمع العلمي " ومن الناس من جاوز مهيع البحث الي ترهات التلفيق ففتح بتدوين الأقاويص والتكاذيب ... شأن بعض المستشرقين في كثير مما يكتبون عن الشرق، ومنهم من لجأ الي الفرية فاخترق واقتري ماشاء . كل ذلك وبنو معروف [١] معتمون بالصمت ، كأنهم يتأثمون من الإفصاح بشيء عن كنه مذهبهم " [٢].

" أما القلة من بين الدروز التي أملت بسر الدعوة وأحاطت بكنه الرسالة فقد أبت عليها منزلتها الروحية ان تفضي بما تعلم الي غير المؤهلين المستكتمين وحجتها في ذلك أن باب الإستجابة للدعوة أغلق منذ قرابة ألف عام " [٣] .

كل ذلك جعل دراسة عقيدة الدروز أمراً صعباً لما يحيط بها من غموض ولخفائها عن أكثر الناس ولاسيما من بين الدروز أنفسهم ، حتي أن الدكتور محمد كامل حسين ، أستاذ الأدب في كلية الآداب جامعة القاهرة والذي عني عناية كبيرة بالكتابة عن الشيعة والاسماعيلية خاصة يقول في مقدمة كتابه " طائفة الدروز - تاريخها وعقائدها " ان بعض أصدقاءه سألوه أن يضع كتاباً عن الدروز ويعلق علي ذلك بقوله " وليس بعجيب أن يكون هؤلاء الأصدقاء من الدروز أنفسهم الذين صرحوا لي بأنهم لا يعرفون شيئاً عن عقيدتهم بالرغم مما هم عليه من ثقافة واسعة أهلتهم أن يشغلوا مراكز هامة في المجتمع " [٤] .

" ومما يذكر في هذا المجال أن اعلاماً عديدة من الدروز طالبوا بشده مشيخة عقل الدروز بالإفراج والإعلان عن حقيقة العقيدة الدرزية ولكن مشيخة العقل أصمت أذنها عن كل هذه الأصوات وخاصة أصوات الدروز في المهجر وفي مقدمتهم الدكتور نجيب العسراوي الذي ماقتىء يطالب بذلك ، وعندما ينس من ذلك أصدر كتاباً عن هذه العقائد باللغة البرتغالية حتي لا يقرأه كل الناس " [٥] .

[١] يقصد الدروز الذين عرفوا بهذا الإسم لإشتهارهم بإسداء المعروف

[٢] مذهب الدروز والتوحيد ، عبد الله النجار ، ص ٨ و ٩

[٣] مذهب الدروز والتوحيد ، عبد الله النجار ، ص ٩

[٤] طائفة الدروز ، عرض ونقد / محمد كامل حسين ، ص ٤

[٥] الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ، د. محمد أحمد الخطيب ، ص ٣٠٠

أما عبد الله النجار فقد كان أكثر شجاعة وعملية إذ أصدر كتابه ( مذهب الدرّوز والتوحيد) وبسط فيه باللغة العربية وبأسلوب سهل ما طلع عليه- ودقق فيه كل التدقيق - من قواعد المذهب وفلسفته محاولاً بذلك كسر جدار السرية الذي أحاط به شيوخ الدرزية مذهبهم يقول عبد الله النجار في مقدمة كتابه " ومن أولى من أصحاب البيت بتلبية نداء العلم ، وفتح الأبواب علي مصراعيها ولو كره المظمتون خلف جدرانه . ففي ذلك تحقيق لرغبة المستطلعين ومعظمهم من أبناء المذهب نفسه " [١] .

وعلي الرغم من رغبة الأستاذ عبد الله النجار في تقديم خدمة لإخوانه في المذهب وغيرهم علي السواء ، بل رغبته في تقديم محاولته في نشر مذهبه الي المكتبة العربية لسد فراغ فيها لاغنى لها عنه في تكاملها إلا أنه كان يتوقع أن تنثور عليه ثورة الدرّوز ، وتصيب عليه نقمتهم ، حين بسط أمام الناس فلسفة هذا المذهب ، وأعلن أسراراه .

وقد كان ماتوقعه الأستاذ عبد الله النجار ، فقد حاكمه مشايخ الدرّوز لفضحه أسرار دينه ، وجمعوا نسخ الكتاب من الأسواق وأحرقوها وصدر بأمر من مشيخة العقل كتاب ألفه الدكتور سامي مكارم وقدم له الأستاذ كمال جنبلاط يرد فيه علي كتاب الأستاذ النجار [٢] .

ويحدثنا الشيخ أحمد الشرباصي انه سمع من الأستاذ أنيس فريجه في أول يناير سنة ١٩٥٥ م أن له رسالة مخطوطة عن عقائد الدرّوز المعاصرين ولكنه لا يستطيع نشرها ، وسمعه يؤكد أن المبادئ الدرزية القديمة مازالت موجودة وان كانت مستورة علي سبيل التقيّة [٢] .

[١] مذهب الدرّوز والتوحيد ، عبد الله النجار ، ص ٩ .

[٢] الحركات الباطنية ، ص ٢٩٩ (مرجع سابق) .

[٣] أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام ، ص ١٨ .

## عقيدة الأمير شكيب أرسلان

هل كان الأمير شكيب أرسلان درزياً في عقيدته كدرزيتة في نسبه ؟ . يؤكد الشيخ أحمد الشرباصي أن الأمير يعد من الناحية الشكلية درزياً ، ولكنه في الإعتقاد سنياً وكان يتعبد على مذهب أهل السنة ، فهو يصوم ويصلى ويزكى ويحج كما يفعل جمهور المسلمين [١] .

ويشير الشيخ في موضع آخر إلى تأكيد زوجة الأمير أن زوجها سني المذهب و ينقل عنها قولها أن الدرود يحرمون الزواج من سنية ولكن زوجي تزوجني وأنا سنية مسلمة . ويعلق الشيخ على ذلك التناقض بين نسب الأمير شكيب وعقيدته بقوله : وقد تسبب هذا الوضع في متاعب لشكيب ، فمن الدرود من لا يرونه درزياً كاملاً ، ومن السنين من لا يرونه سنياً كاملاً ، فضاغ جانب من حقه بين هؤلاء وهؤلاء [٢] .

ونحن أيضاً نتساءل : إذا كان الأمير شكيب سنياً في عقيدته فلماذا كان يحرص على الدفاع عن عروبة الدرود وإسلامهم وكرم أخلاقهم وتأكيد الدائم على أن فرقة الدرود فرقة إسلامية في كل شيء . كغيرها من الفرق الإسلامية التي لها تعاليمها الخاصة ومع ذلك لا يخرجون عن جملة المسلمين . ونحن لانشك في نسبة الدرود العربية ، فهم يعتزون بعروبتهم حتى أنهم غيروا اسم جبل الدرود الى اسم " جبل العرب " إمعاناً في عروبتهم [٣] ولكننا لا نتفق مع الأمير شكيب أرسلان في قوله أن فرقة الدرود فرقة إسلامية في كل شيء ، وأن تعاليمها الخاصة لا تخرجها عن جملة المسلمين ، وسيأتي تفصيل ذلك عند

[١] أحمد الشرباصي ، الأمير شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، ص ٢٢ .

[٢] أحمد الشرباصي ، أمير البيان شكيب أرسلان ، ج ١ ص ٧٤ .

[٣] د. محمد كامل حسين ، طائفة الدرود ، ص ١٢٦ (مرجع سابق)

مناقشة موقف الأمير شكيب أرسلان الكلامي من فرقة ( الدروز ) ، في باب الآراء الكلامية عند الامير شكيب أرسلان .

غير أننا نرى من خلال دراستنا لفكر الأمير شكيب أرسلان أنه كان - كما أكد الشيخ الشرباصي - سنياً في عقيدته ، وفي فهمه للإسلام ، وفي حرصه وغيرته على القرآن الكريم ، ونبى الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي دفاعه عن اللغة العربية لغة القرآن ، وفي إيمانه الراسخ بأن أسباب التقدم والرقى في العالم الاسلامى كلها محصوره فى التمسك بمبادئ الإسلام ، وإقامة شريعته ، وفي جمع كلمة الأمة الإسلامية . يقول شكيب أرسلان " إن أسباب الارتقاء كانت عائدته فى مجملها إلى ديانته الاسلامية ... فالقرآن قد أنشأ إذا العرب نشأة مستأنفة وخلقهم خلقاً جديداً وأخرجهم من جزيرتهم والسيف فى إحدى اليدين والكتاب فى الأخرى يفتحون ويسودون ، ويتمكنون فى الأرض بطولها وعرضها " [١].

هذه هى منزلة القرآن فى فكر الأمير شكيب أرسلان وفى عقيدته وسنظل نجده هو القاعدة التى ينطلق منها دائماً فى آراعه الكلامية والفلسفية وفى فكره السياسى .

ويتجلى فهم الأمير شكيب أرسلان للعقيدة من خلال احتفاله بالدعوة ( الوهابية ) وتعريفه لها بأنها حركة إنابة إلى العقيدة الحق ، وذلك فى تعليقاته على فصل اليقظة الإسلامية فى كتاب ( حاضر العالم الاسلامى ) ، يقول شكيب " لاينكر أن الوهابية هى نهضة فى الإسلام عظيمة ممتدة فى أكثر بلاد العرب وفى الهند .... ولكن المقرر أنها حركة إنابة إلى العقيدة الحق وهدى السلف الصالح واقتفاء أثر الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابه ، ونبذ الخرافات والبدع ، وحظر الإستغاثة بغير الله ، ومنع التمسح بالقبور والتعبد عند مقامات الأولياء ، ولذلك يسمونها عقيدة السلف ، ويلقب الوهابيون أنفسهم سلفيين ، وأكثر اعتمادهم فى الاجتهاد على الامام أحمد بن حنبل ، والإمام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية " [٢].

ولقد مر بنا أن الدروز ينقسمون من الناحية الدينية الى عقال وأجاويد أى الذين لهم الحق فى معرفة شىء من العقيدة السرية ، ويجعلون لرجال الدين زياً خاصاً بهم ، والقسم الثانى

[١] شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ ..... ص ٤١

[٢] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامى ، ج ١ ص ٢٦٤

هم الجهال ..... الخ .

وشكيب أرسلان ينكر كل هذا ويرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم ( صاحب الرسالة ) " كره أن يعين وظائف دينية يتولى القيام بها رجال مخصوصون ، فالإسلام من حيث الأصل لم تنص كتبه الشرعية من من المسلمين يتولى القيام بالوظائف الدينية ، على حدما هو الأمر في النصرانية واليهودية والبرهمية وغيرها . فأى مسلم يستطيع أن يقوم في المصلين إماماً " [١].

ويحذر الأمير من البدع وإن حسنت نية أصحابها ، ومن تقليد أتباع الأديان الأخرى في طقوسهم وأزيائهم التي تخالف روح الإسلام ن فيقول : >> كنت يوماً في المدينة المنورة فشاهدت فيها شيخ الحرم النبوي ( وكان يومئذ زيوربك مدير المذاهب في الأستانة سابقاً ) وبعض خدمة الحرم في ساعة مخصوصة بعد العصر ، يدخلون الحجرة الشريفة لإيقاد الشموع والقيام ببعض الخدمات المرسومة ، وقبل دخولهم يلبسون جميعهم وشاحاً أبيض شفافاً ، وكأنهم يريدون بذلك زيادة التعظيم والتوقير ، فذكرنى ذلك بالأوشحة التي هي من النوع نفسه يلبسها بعض رجال الأديان الأخرى التي فيها ما ليس في الإسلام من الرتب الدينية والدرجات الكنسية ، وذلك عندما يدخلون إلى معابدهم ، وهم لا يلامون على ذلك لأن لخدمة الدين طبقة مخصوصة عندهم بخلاف الإسلام ..... " [٢].

ويستمر الأمير في بيان ما وقع في نفسه من إنكار هذه العادة، التي ينكرها من كان يفهم روح الإسلام جيداً [٣]، ثم يستشهد بالحديث الشريف : " لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه " [٤].

والحق أن الدارس لفكر الأمير من خلال مؤلفاته يلمس أن قلب الأمير شكيب قد وسع العالم الإسلامي كله حياً وإكباراً وتقديراً ، ويشعر في كتبه أن روحه الإسلامية العربية ، لاتفرق بين مذهب ومذهب ولا بين أمة وأمة ، لذلك فقد جهد الأمير جهداً كبيراً في دعوة المسلمين

[١] المرجع السابق ، ص ٢٧٠

[٢] ، [٣] ، [٤] المرجع السابق ص ٢٧٢ (هامش)

في الشرق الي الإتحاد والتضامن في مواجهة الغرب الأوربي ، ويدعو المسلمين لنبذ أسباب الفرقة والتناحر التي زرعتها الغرب فيما بينهم ، فيقول : " فبعد أن تقرر وجود هذا التضامن المتين بين جميع الأوربيين في وجه الاسلام والشرق بأسره ، لاجب أن يكون هناك تضامن بين الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا ، لاسيما أن بين هؤلاء رابطة دينية " [١]. ويقول أيضا دفاعا عن القضايا العربية الاسلامية : " واذا كان عمال فرنسة منذ اول احتلالهم لسوريا أى منذ ١٩١٨ الي ساعة تحرير الأمير للسطور ، لم يفتروا يوما واحدا عن تأريث الضغائن الدينية بين المسلمين والنصارى في سوريا ، وبين النصارى والدروز في لبنان بعد أن كانت هذه الضغائن والدحول قد سكنت وتلاشت تقريبا ، فتجد سورية ولبنان اليوم في أسوء حال من هذه الجهة مما بذرتة يد الاجتلال ، التي ظنت أنها لا تمتد الا علي بساط شقاق ، ولا تتمكن الا من خلال فتنة " [٢].

من النصين السابقين يظهر مدى حرص الأمير علي وحدة الصف العربي الاسلامي وحرصه علي حث الأمة علي نبذ الخلافات والمنازعات المدسوسة بينهم ليوقف المسلمون صفا واحدا في مواجهة عدوهم جميعا المتربص بهم . ومن هذا المنطلق دافع الأمير عن عقيدة الدروز وارتباطها بالعقيدة الإسلامية ليحفظ للمسلمين وحدتهم في مواجهة عدوهم المشترك . وهذا ما أثبتته الأمير في مقاله نفسه بقوله :

" ولهذا أنا لأفهم : ماوجه الضرورة لفتح مسألة ديانة الدروز ومافيها من مخالفة الاسلام ، في وقت يسفك فيه الدروز دماءهم باسراف في الدفاع عن حوزة تسعة أعشارها للمسلمين ، لأن الدروز في سوريا ١٥٠ ألف نسمة ، والمسلمين يزيدون عن المليونين " [٣]. وهذه الفقرة الأخيرة تبين بجلاء السبب الأساسي الذي كتب من أجله مدافعا عن الدروز ، بدافع من حرصه علي الا ينشغل المسلمون بمعارك جانبية فيما بينهم تزيد من ضعفهم في مواجهة الأعداء الحقيقيين الذين يسعون بكل طاقتهم لزرع الشقاق بين فرق المسلمين المختلفة

[١] حاضر العالم الاسلامي ج ٢ ص ٣٢٨

[٢] المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٤٠

[٣] مجلة الشورى - عدد ٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٥.

لأنهم علموا أنهم لا يتمكنون الا من خلال فتنة .

والدارس لمقالات الأمير وكتبه يجد أن الحرص علي جمع فرق الاسلام جميعا تحت لواء واحد كان هدفه دائما مع اعترافه بوجود انحرافات شديدة عند بعض الفرق عن العقيدة الإسلامية الصحيحة ، ولم يكن يطبق هذا علي الدروز وحدهم لأنهم قومه بل كان حريصا علي اتباعه مع فرق وقبائل وشعوب إسلامية أخرى . فعندما ذكر ماقعله الفرنسيون في لبنان من بث الفرقة بين أبنائه ، تذكر ماقعلوه أيضا في الجزائر من زرع للشقاق بين العرب والبربر فقال " وليس بصحيح أنه لما دخل الفرنسيين الجزائر كان فيها ٨٠٠ ألف بربري غير مسلمين ، فالإسلام دين البربر قاطبة منذ أكثر من ألف سنة ، واللسان العربي هم يعرفونه جميعاً إلا ماندر من جهلائهم . وقد اجتهد عمال فرنسا كثيرا في فتنهم في دينهم ، ووقفوا إلى بعض ماقصدوه وذلك بأن أدخلوا عليهم الشكوك في عقائدهم ، فأصبح بعضهم معطلين أو ملحدين ، ولكنهم لم يتمكنوا من نقلهم من الاسلام الي النصرانية [١] .

وعندما يتحدث عن فتح الترك القسطنطينية ويصل به الحديث الي (البردة النبوية الشريفة ) التي أخذها السلطان سليم العثماني من آخر خلفاء بني عباس ، وقد أعد لها لترك بناء خاصا بها ، وكان السلاطين يحتفلون بزياراتها في وسط رمضان احتفالا غريبا يصفه الأمير شكيب وقد حضره مرارا فيقول : " كان السلطان يجلس على دكة وأمامه الصندوق الذي فيه السقف الذي فيه البردة وهم يقولون لها " خرقت سعادتي " . ثم يتقدم الرجال المدعوون للحفلة واحدا بعد واحد بالترتيب بحسب برنامج معلوم فيرقى الواحد منهم درجة الدكة ويصير أمام الصندوق ، وينحني ، ويقبل الصندوق من أعلاه . ويستمر الأمير في وصف هذا الاحتفال الذي لم ينزل الله به من سلطان ثم يعلق علي هذا بقوله :

" لعل اخواننا الواهابيين يستهجنون هذه المراسم ولا يرون تقييل الآثار النبوية أو الاصونة التي فيها مما يستحب شرعا الا أنه ليس شيء من هذه الامور منويا به غير مجرد

التذكر والتبرك وانما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى" [١] .

ومن دفاع الأمير شكيب عن البربر والأتراك يتبين نزعة الأمير الي الوحدة الاسلامية وحرصه علي أن يناي المسلمون بأنفسهم وباخوانهم في الدين عن رميهم بالكفر لأوهي الأسباب مع اعترافه بوجود إنحرافات عن جوهر العقيدة الصافية وهو في موقفه هذا يقرر قول الشيخ محمد عبده أنه : " اذا صدر قول يحتمل كفر من مائة وجه ويحتمل الايمان من وجه واحد، حمل علي الايمان ولايجوز حمله علي الكفر" [٢] .

ولقد حصر الأمير شكيب أسباب ارتقاء المسلمين في الماضي في تمسكهم بالديانة الاسلامية التي جمعت العرب بعد فرقة ، وبعدهم عن الخلاف الذي عاد فذب بينهم في أواخر خلافة عثمان وفي خلافة علي فعطل تقدمهم وأوقف فتوحاتهم .

يقول الأمير عن أسباب ارتقاء المسلمين في الماضي : " ان أسباب الارتقاء كانت عائدة في مجملها الي الديانة الإسلامية التي كانت قد ظهرت جديدا في الجزيرة العربية فدان بها قبائل العرب ، وتحولوا بهدايتها من الفرقة الي الوحدة ، ومن الجاهلية الي المدنية ، ومن القسوة الي الرحمة ، ومن عبادة الأصنام الي عبادة الواحد الأحد ، وتبدلوا بأرواحهم الأولي ارواحا جديدة ، صيرتهم الي ماصاروا إليه من عز ومنعة ، ومجد وعرفان وثروة ، وفتحوا نصف كرة الأرض في نصف قرن ، ولولا الخلاف الذي عاد فذب بينهم منذ اواخر خلافة عثمان وفي خلافة علي رضى الله عنهما لكانوا أكملوا فتح العالم ولم يقف في وجههم واقف " [٣] .

وهكذا يرى الأمير في الخلاف بين المسلمين الآفة التي فرقت جمعهم ، وأوقفت تقدمهم في الماضي ، ويرى أن مستقبل العالم الاسلامي مرهون باتحاده اتحادا تاما ، حتي يمكنهم الدفاع عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء .

[١] حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ٢٣١ ، مع ملاحظة أن هذا الاحتفال وان كان ابتداعا في الدين الا أنه لايعد من الكفر .

[٢] الاسلام والنصرانية للشيخ محمد عبده ص ٥٧

[٣] شكيب أرسلان لماذا تأخر المسلمون ص ٤١

"جميع هذا يوضح أن العالم الإسلامي يجب عليه أن يتحد اتحادا دفاعيا تاما ، مستمسك الأطراف وثيقة العرى ، يستطيع بذلك الازدياد عن كيانه ، ووقاية نفسه من الغناء المقبل " [١]

فلا عجب أن نجده حريصا علي أن يظل الدروز - وهم أهله - متمسكين بانتمائهم الإسلامي ، وأن يظل المسلمون ينظرون إليهم علي أنهم اخوان لهم في الدين والنسب والوطن فالجامعة الإسلامية من وجهة نظره تهدف إلي هدف سياسي الي حد بعيد ، ولذلك فهي لا تتوجه بالعداء الي الفرق الدينية الأخرى ، وان خرجت من الاسلام ، وانما الي استعمار الفرنجة تجديدا . يقول الأمير "الجامعة الإسلامية ليس معناها في نظرهم أن يقوم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ليؤلفوا كتلة واحدة ليقاوتوا كل من هو غير مسلم "الجامعة الإسلامية هي أكثر من ذلك ، فهي تجمع المسلمين الي غير المسلمين في اطار الغايات الواحدة هي تقدم للمشرقين ، وليس للمسلمين فحسب ، يعتصمون بها فتغدو اداة توحد للشعوب المقهورة [٢] .

هذه الأسباب السياسية والدينية التي دفعت الأمير الي الحرص علي الدفاع عن نسبه واسرته وقومه والطائفة التي ينتسب اليها ، ولكن تبقى أسباب أخلاقية أخرى دفعت الأمير الي الحرص علي إثبات نسبه ونشره في سجل بعد توثيقه من النقائ من العلماء والشيوخ ، بل ولم يدخر جهدا في تتبع مصادر التاريخ ومناقشتها لينتهي الي مثل الثقة في بيان تاريخه وتاريخ أهله ، ثم ختمه بتأكيد الثقة فيما انتهى اليه أمام القارئ فقال : " والقارئ يرى أننا تحرينا جهد الاستطاعة ، وعرضنا الروايات والآراء ، ولم يكن استقصاؤنا في هذا البحث الا لأجل تمحيص ناحية من نواحي التاريخ العربي هي أخبار عرب لبنان والسواحل الشامية من زمن التاريخ وكذلك حريا علي شئونة العرب في حفظ الأنساب والتتقيب عن أخبار أجدادهم والناس مأمونون علي انسابهم ، وفوق كل ذي علم عليم " [٣] .

هكذا يحرص الأمير أشد الحرص علي حفظ نسبه ولا يترك مناسبة الا ويشير فيها الي مآثر أجداده في التاريخ ومفاخر أسرته كمثل قوله عند ذكره "لأمير جمال الدين الأرسلائي"

[١] شكيب أرسلان حاضر العالم الإسلامي ص ٣٠٧ ج ١

[٢] شكيب أرسلان مقدمات الفكر السياسي للدكتور محمد شفيق ص ١٦٣

[٣] شكيب أرسلان ، روض الشفيق في الجزل الرقيق ، ص ٢٦٢

- في تعليقاته علي ابن خلدون وانحيازه مع أمراء لبنان إلى جانب السلطان سليم العثماني في حربه ضد الملك الأشرف قنصوه الغوري ، " وهو جدنا علي عمود النسب " [١] .

وفي مقال للأمير عن الإمام الشيخ محمد عبده يعدد فيها مزايا الشيخ ورقة طبعه وتقززه عن سماع الألفاظ النابية وأسماء العورات لا ينسى أن يمتدح أخلاق الدروز وعفة أسنتهم ، فقال متحدثاً عن الشيخ : " وكان أحد أصدقائه الأجلاء من أعيان بيروت قد تعود أن يتلفظ بالسوءات كما هي ولا يذهب فيها مذاهب التورية فكنت أرى الشيخ يتقزز من سماع ذلك ومراراً صرح أمامي باشمئزازه من هذه العادة السيئة ، التي تغلب علي بعض الأسنة . فكان في هذا الأمر كثير الاستحسان لطريقة الدروز الذين كان العلامة فاندريك الامريكاني الكبير يقول عنهم : تعاشر الواحد منهم خمسين سنة فلا تسمع منه ولا مرة لفظ سوءة ، ولا قصة فيها شئ من الخلاعة . وكان المرحوم الاستاذ يستحسن جدا هذه الميزة فيهم ، ويعجب بأدابهم في مجالسهم حتي آداب العوام منهم " [٢] .

والأمير شكيب لا يجد في كثرة حديثه عن أسرته ونسبها ومفاخرها أى غضاضة ، لأن الاعتزاز بالأنساب وحفظها في رأيه ضرورة أخلاقية .

ويرى الأمير شكيب أرسلان أن حفظ الأنساب من الفضائل الإجتماعية التي لا يجوز أن تخلو منها هيئة بشرية راقية ، وهو ضروري لأجل الدول الراقية المهذبة التي تريد أن تعرف أصول الشعوب التي إشتملت عليها ممالكها ، والخصائص التي عرف بها كل من هذه الشعوب بما يكون أعون لها على تهذيبها وحسن إدارتها .

ويرى الأمير في الحرص على النسب حرص على توارث الخصال الحميدة والأخلاق الفاضلة " فمن الحقائق العلمية الثابتة المقررة عند الأطباء والحكام ، كما هي مقررة عند الأدباء والشعراء أن الأخلاق والميول والنزعات المختلفة تتوارث كما تتوارث الأمراض والأعراض الصحية ، والدماء الجارية في العروق " [٣] . فكان لا بد من معرفة الأنساب حتى يسعى كل فريق في إصلاح نوعه بطريق الترقية والتهذيب ضمن دائرته الدموية بحسب استعدادها الفطري ، وهذه الإستعدادات أحسن دليل عليها هو علم الأنساب " [٤] .

[١] تاريخ ابن خلدون، ملحق الجزء الأول ص ١٧٥ المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٣٦ م

[٢] تاريخ الأستاذ الامام ج ١ ص ٤٠٦

[٣] تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ص ٣

[٤] المصدر السابق ص ٤

ولا ينسى الأمير أن يشير إلى الجانب السلبي من المبالغة والإفراط والغلو في إعتبار الأنساب والإعتزاز بشرف الأحساب وما يثيره ذلك من فتن وانقسامات وعداوات بين أبناء الأمة الواحدة تصدع وحدتهم وتفرق جمعهم كما تفعل العصبية الموروثة بين العرب قبيل الإسلام وبعده ، " فكما أن الأنساب كانت تثير فيهم الحمية والنخوة ، وتبعث روح التنافس الحافز لهم على طلب المجد ؛ كانت تثير بينهم أيضاً العداوات والفتن التي تصدع وحدتهم وتخدم في النهاية جمرتهم ، فأضرت من حيث نفعت . ولقد أجمع المؤرخون واتفق علماء الاجتماع ، أن سبب سقوط سلطنة العرب هو طبيعة هذه الأمة في الانقسام والانفراد ، وغرامها في منافسة بعضها بعضاً " [١] .

غير أن الأمير يعود فيقرر أن الاعتزاز بالنسب إذا لم يؤد إلى الانقسام عمل كريم وسنة حميدة ، فيقول : " ولولا آفة الإنقسام هذه لكان التمسك بالأنساب هو من الفضائل الاجتماعية التي يتنافس بها ، ويتمكن بها المصلحون لحكوماتهم وأوطانهم من ترقية أقوامهم بالبحث عن سلالتهم ، والاعتناء بحفظ أصالتها ، ومنع إختلاطها بغيرها مما يشوب نقاوتها " [٢] .

والأمير في تقديره لمكانة النسب وأثره في توارث الفضائل يسير على نهج أستاذه الإمام محمد عبده الذي كان يؤكد أن الإسلام لم يهمل شأن النسب ، ولم يضع من شأن الأدب المكتسب ، بل طلب العدل في الأمرين ، (لأن الإسلام جاء والعرب أشد الناس محافظة على أنسابهم وأشدهم حرصاً على معرفة ما كان لأسلافهم من مجد وحسب وكانوا يببالغون في الإعتزاز بشرف الأحساب حتى كادوا لا يعدون من خلال الخير شيئاً يساوي شرف النسب . وهيهات أن يرتفع ذو أدب بأدبه إلى رتبة شريف بنسبه ، وإن كان خاملاً في نفسه غير شئ في عمله ) " [٣] .

(فجاء الدين الإسلامي ينكر الإفراط والغلو في إعتبار الأنساب ، كما أنكر ذلك في كل شئ حتى في الدين نفسه وقال التنزيل (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، وقال صلى الله عليه وسلم (( إئتوني بأعمالكم ولا تأتوني بأنسابكم )) ليدل على أن النسب وحده ليس بالشئ يرفع ويخفض ولكن المعول عليه ، وما يصح أن يرجع الكرم إليه ، إنما هو ما يكون عليه المرء نفسه فإن وافق ذلك نسباً عالياً وحسباً تالداً كان أبلغ في الشرف وأعرق في الكرم وإلا فلن

[١] تاريخ ابن خلدون، ملحق الجزء الأول ص ١٧

[٢] تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول لشكيب أرسلان ص ١٧

[٣] تاريخ الأستاذ الإمام ، الجزء الأول ص ١٧

يخس العامل عمله ولن يحرم أولئك الذين فاض عليهم الفضل الإلهي فرفع أنفسهم عما كان وضعهم آباؤهم ، فجعلهم بذاتهم أصولاً للكرام وأدواحاً للمجد بما أودع فيهم من الغرائز الفاضلة ، ووقفهم للأعمال الصالحة ، فمنهم يبتدئ الحسب ، وإليهم في القرون المستقبلية يرجع النسب [١] .

ثم يقول الشيخ الإمام : ( هذا ما أراده الإسلام وما دعا إليه ولكنه مع ذلك أمر برعاية النسب إلى الآباء ونفى ما كان عند الجاهلية من عادة التبني والإلتحام بالأدعياء وفرض على المؤمنين أن يدعوهم لأبائهم ليعرفوا بهم لا بمن إندرجوا فيهم ، وجعل لقريش من الفضل على غيرها من القبائل ما يقصر من بلوغه رواحل الآمال وأوصى علي بن أبي طالب أن يعهد بجلال الأعمال إلى أهل البيوتات الصالحة وذوي القدم السابقة وجاءت سنة السلف شاهدة بأن للأنساب وتوارث الأحساب مظاهراً في أعمال الأشخاص وأثاراً في خصالهم ينبغي النظر إليها " [٢] .

هذه مكانة الأنساب في الإسلام كما يقررها الشيخ الإمام وهي مكانة جليظة وسنة من سنن الله في خلقه وهي سنة توارث الأخلاق والغرائز ، غير أن المسلمين هم الذين أهملوا هذه السنة وقلبوا مقاصد الإسلام العالية فيها إلى أضعافها حتى سقطت منزلة النسب في نفوسهم ، وعاندوا بذلك سنة من أعظم سنن الله في خلقه ، (وإن ما يكون في الآباء من أصول الملكات يهئ الأبناء لكسب مثلها وما جاء مخالفاً لذلك فهو من مبتدعات القدرة الإلهية) [٣] .

وهذا ما أكده الأمير شكيب أرسلان وحث على حفظ الأنساب في المجتمعات الإسلامية ليلحق أصحابها مكاسب مادية ، ولا يكتسبوا بها مكانة أدبية ، وإنما ليحققوا بها هدفاً أعلى وأرقى من كل هذا هو توارث الأخلاق الفاضلة وترقية المجتمعات الإسلامية بحفظ أصالتها ، وهذا هو السبب الذي يرومه من دعوته لحفظ الأنساب كما ذكره بنفسه في قوله : " ونحن لو نظرنا إلى السبب في حفظ النسب لاتفده منحصر في معرفة التاريخ ولا في الامتيازات المادية التي يحوزها أصحاب النسب في العادة ، ولكن هناك غرض آخر أعلى من ذا وذا ، وهو توارث الأخلاق التي تهتف بالفضائل ، والافعال المجيدة ، وتركي الأنفس .

[١] تاريخ ابن خلدون، ملحق الجزء الأول ص ١٧

[٢] الشيخ محمد عبده ، تاريخ الأستاذ الإمام ص ١٧

[٣] المرجع السابق ص ١٨

فمن المعلوم أن أصل البيوتات الشريفة هو أن ييرع أحد الناس على أقرانه ، ويبد  
أبناء زمانه بطبيعة ممتازة فى نفسه قد تكون أسبابها النفسية مجهولة ، وإنما تظهر آثارها  
فى أفعاله فيمتاز بين قومه وتحصل له رئاسة وسؤدد ، ويشيع ذكره ويرتفع شأنه ، وتتمنى  
الحوامل أن تلد مثله ، وهذا ما يقال له المجد الطريف وبعد ذلك إذا أعقب نسالا اجتهد نسله  
ان يقتدوا به بقدر الإمكان ، حتى يمتازوا بالأخلاق التى امتاز بها أبوهم ، ويحوزوا مثلما  
حازه من الشرف والسؤدد ، وتعب رهطهم فى تقوية هذه الروح فيهم طمعا فى استبقاء هذه  
الغرائز التى أورثهم إياها سلفهم وهى التى تغريهم بالفضائل ، وتبعدهم عن الرذائل ، وترفع  
بهم عن سفاسف الأمور ويقال لهذا المجد التليد [١] .

### أثر الوراثة فى التربية

يبين الأمير أن صلاح النسب وأصالة أهل البيت تحمل أبناء الاسرة الكريمة على تجنب  
كل ما يشين حتى أن الناشئ من أهل تلك البيوتات العريقة فى حسيها ونسبها يتجنب بطبعه  
كل عمل خسيس حتى لايسئ إلى سمعة بيته وما كان لأسلافه من مجد وحسب ، فتكون نفسه  
بذلك مستعدة ومهيئة لتكوين الملكة الصالحة ، وإذا وجد التربية الحسنة أسرعت بتكوين تلك  
الملكة وتزكيتها ، أما من شذ عن هذه القاعدة فإن " اول ما يقرع به الناس أحد أبناء البيوتات  
الكريمة إذا أقدم على عمل خسيس ، ويهيبون به إلى التوبة منه ، أن يقول له : أفلسنت انت  
ابن فلان ؟ أو من آل فلان ؟ أيجمل بك ان تفعل كل ما هو كذا وكذا !! فماذا تركت للسوقة  
والطغام ؟ وأشبه هذه الاقوال التى تدل على دلالة واضحة على ان الأصالة مفروض فيها  
أن تقترن بالنبالة ، وبعبارة أخرى أن الأصيل فى نسبه ينبغى أن يكون فاضلاً فى عمله ،  
بارعاً بأدبه ، وما جاء على خلاف هذه القاعدة يعتبر شاذاً " [٢] . فالأصل الكريم قد يحمل  
الناشئ على اتباع الخلق القويم فإن وجد معه التربية الحسنة فإنها تمهد السبيل وتسرع  
بتكوين الملكة الصالحة فى النفس المستعدة حتى يكون الشاب من أهل بيت صالح بمنزلة  
الشيخ ممن جاهد نفسه وأخذها بالرياضة على مكارم الأخلاق وليس له سلف فيها ، وان  
كانت التربية رديئة أمانت الاستعداد للخير ومحته من طبيعة النفس وجاءت بدله بضده" [٣]

[١] تاريخ ابن خلدون، ملحق الجزء الأول لشكيب أرسلان ص ١٨

[٢] المرجع السابق ص ١٨

[٣] الشيخ محمد عبده عن تاريخ الأستاذ الإمام الجزء الأول ص ١٨

"وشأن التربية مع الاستعداد للردائل ذلك الشأن بعينه فإن كانت صالحة أمّنت ذلك الاستعداد ولكن بعد عناء يستغرق السنين الطوال وإن كانت غير صالحة أسرع بتكوين الملكات الخبيثة في نفس الناشئ حتى يكون الفتى من قوم فاسقين قد بلغ مبلغ الشيخ من غيرهم يرميه القدر من أول نشأته من قسى الحاجة فيأخذ يكلف نفسه مالميس في استحداثها ويحملها على معاواة ملايطيق من الخلال من الحيلة والمكر والخديعة مثالا وهو ليس من أهلها " [١] .

ثم يعود الأمير فيقرر مؤكداً على الإرتباط الوثيق بين حفظ الأنساب والأخلاق فيقول : "إذا تقرر عندنا هذا ، تقرر أن حفظ الأنساب هو عبارة عن حفظ الفضائل وإمتاع المجتمع بها . ومتى كثرت الفضائل في المجتمع ترفت الأمة وعرجت في سلم النجاح ، وأصبحت أمة عزيزة غالية ، لأن الأخلاق الفاضلة هي الأساس الذي يبنى عليه كيان الأمم " [٢] .

"وبالاجمال إصلاح الأجناس بالتزواج ، وبالتربية ، وبالتغذية ، سواء كان في الأدميين أو كان في الطيور الداجنة ، يتوقف على حفظ الأنساب ، والعناية بعقتها . ولايزال الحديث الشريف : (اطلبوا كرام المناكح فإنها مدارج الشرف) من أصدق القواعد العلمية ، والحقائق العالمية " [٣] .

من أجل هذا وغيره عنى شكيب بإطالة الحديث عن نسبه وأسرته وأجداده ، وبذل جهداً كبيراً في تحقيق هذا النسب وإبراز النابغين والأبطال من جدوده ، ومن أجل هذا دافع عن طائفة الدرزية وكان يحتفل بكل مدح لأخلاقهم ويبرزه ويشير إليه كاحتفاله بقول شوقي في الدروز :

وما كان الدروز قبيل شر	وإن أخذوا بما لم يستحقوا
ولكن ذادة ، وقراءة ضيف	كينبوع الصفا خشنوا ورقوا
لهم جبل أشم له شعاعف	موارد في السحاب الجون بلق
لكل لبسوءة ولكل شبل	نضال دون غايته ورشوق
كان من السموال فيه شيئا	فكل جهاته شرف وخلق

[١] الشيخ محمد عبده ، تاريخ الأستاذ الإمام - الجزء الأول / محمد رشيد رضا ص ١٨

[٢] تاريخ بن خلدون - ملحق الجزء الأول ص ١٨

[٣] المرجع السابق ص ١٨

ويعلق شكيب على ذلك بقوله : "قال شوقي هذه الأبيات ، وأحسن ما فيها أنه قال قولا لم ينكره أحد عليه ، لأن الاجماع واقع على اتصاف بنى معروف" [١] بهذه الخلال التي عرفها شوقي فيهم ، إما من التاريخ ، وإما فى أثناء قدماته إلى الشام وإما فى الأثنين معا " [٢] .

---

[١] سأل سائل عن سبب تسمية الدروز ببنى معروف فأجابت مجلة الهلال: " عرفوا بهذا اللقب منذ القديم لمحض

اشتهارهم بإسداء المعروف ، أى الجميل " مجلة الهلال اكتوبر ١٩١٥ ص ٦٥

[٢] كتاب شوقي ، تأليف شكيب أرسلان ص ٢٥٨

obeikandi.com

## الفصل الثالث

### لماذا نعتبره مفكراً إسلامياً

#### تمهيد :

في منتصف القرن التاسع عشر شهد العالم الإسلامي منعطفاً خطيراً في تاريخه ، فقد دب الضعف إلى الدولة العثمانية التي كانت حاجزاً منيعاً لفترة من الزمان أمام الأطماع الغربية ، وقد دام الصراع بين الترك والأوروبيين فترة من الزمان حتي ضعف الإمبراطورية العثمانية [١] فاستطاع الغرب أن يتسلل من جديد إلى البلاد العربية [٢] حتى تمكن من طرد الأتراك من الولايات العديدة ، وفرض الاحتلال علي الجزء الأكبر من العالم الإسلامي عامة والبلاد العربية خاصة . والحقيقة تؤكد أن الغرب كان يستعد عدة قرون بعد هزيمته في الحرب الصليبية و تأثره بالحضارة العربية لبعث نهضة علمية جديدة في بلاده كي يتمكن من الانتفاض علي الشرق الإسلامي انقراضاً ساحقاً ، ولكن ظلت الذكريات الدائمة في مخيلة العسكريين عن التاريخ العسكري البطولي للإسلام " هي التي أبقّت إغربيين حذرين من الهجوم - حتى القرن التاسع عشر - وأبقّت المسلمين راضين مسرورين و التجربة التي بدأت تضعف هذا الرضى عند المسلمين كانت في تتابع الهزائم العسكرية للإمبراطورية العثمانية و القوي الإسلامية الأخرى علي يد خصوم مسلحين بالأسلحة الغربية و مزودة بالعلم و التقنية اللذين هما عصب الفن الحربي عند الغرب " [٣] .

[١] بلغ مجموع مداخيل السلطنة سنة ١٨٧٥ م ٣٨٠ مليون فرنك يتختم عليها ان تدفع منها ٣٠٠ مليون فرنك لتسديد قروضها مما ترتب عليه ان يعلن الباب العالي افلاسه في ٦ تشرين الأول. عن لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص ٣٧٦.

[٢] في سنة ١٨٦٧ صدر قانون سمح بموجبه السلطان العثماني للأجانب بالتملك لأول مرة بالسلطنة عن / فليب حني ، لبنان في التاريخ ص ٥٤٠.

[٣] أرنولد توينبي ، الاسلام والغرب والمستقبل ص ١٩ عن: (فلسفة الاستسراق) د. أحمد سحايوفتش طبعة دار

وأمام التراجع العثماني السياسي انفتح الطريق أمام الغزوة الأوروبية ، وما أن باشر النفوذ الغربي سلطته في رقعة الشرق الإسلامي - منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر - حتى ابتداءً يعمل علي تخلف المسلمين ، وعلي تفتيس الحقد الصليبي [١] .

وليس له هنا طريق آخر لتحقيق هذه الغاية، سوى تناول (مادة التوجيه) المحليه وجعلها غير صالحة ... ولم يكن هناك فى توجيه الشرق الإسلامى سوى : الإسلام ، والتراث الإسلامى الذى خلفه المسلمون فى شرح إسلامهم [٢] .

وهكذا أصبحت سيطرة الغرب على الشرق الإسلامى قوة هدامة تشغل مكانا خطيراً فى تطوره وتزرع فى نفوس أبنائه بذور الشك فى دينه والتكر لقيمه ومثله العليا .

لقد أدرك الغرب كمون القوة فى الدين الإسلامى رغم الهزيمة السياسيه والانحدار الحضارى ، وجمود الحركة فى مجتمعاته ، وذلك أن فرض الغلبة بما هى تعبير عن استقرار السيطرة وضمانها ، قد تطلب ليس فقط تصفية القوة الظاهرة ، وإنما أيضاً التوغل فى عمق الإسلام لضرب القوة الكامنة ، واستلزام الأمر استحداث منهج جديد لا يتظر إلى الإسلام كماضٍ حضارى متفوق أو حاضر مهزوم ، بل كتهديد كامن لن يطمئن الغرب إلا بعد التخلص منه .

واتخذ الغرب الاستعماري وسائله فى محاولة إضعاف المسلمين فى إسلامهم، وهذه الوسائل تنحصر فى توجيه الفكر الإسلامى نحو تحقيق هذه الغاية. وقد برز هذا التوجيه فى صورتين تنم كلتاهما عن هذه الغاية :

الصورة الأولى : قيام بعض مفكرى المسلمين بحركة تقديمية فى الإسلام : تبغى تقرير سلطة المستعمر وتثبيت ولايته على المسلمين من الوجهة الإسلامية. أو بعبارة أخرى تبغى عدم تحديه ومعارضته ، سواء فى مباشرة سلطته على المسلمين، أو فى إدخاله مايسميه بنظم الإصلاح الحديثة بينهم [٣] . وهم يعبرون بذلك عن قبول تام بغلبة الغرب ويتعاملون معها كأمر واقع ومستقبل حتمى .

[١] د. محمد البهى ، الفكر الإسلامى الحديث ص١٧ مكتبة وهبة

[٢] د. محمد البهى ، الفكر الإسلامى الحديث ص ٢٨

[٣] المرجع السابق ، ص ٢٨

الصورة الثانية : قيام بعض الغربيين بإبراز الخلاقات المذهبية وتأكيد الفجوات والتغرات، بين طوائف المسلمين وشعوبهم، من الوجهة السعوبية أو الجغرافية أو نظام الحكم ... مع شرح كثير من مبادئ الاسلام شرحا يشوهها وينحرف بها عن أهدافها الأصلية [١] وذلك كله بالاضافة إلى تمجيد القيم المسيحية والحضارة الغربية ، والنظام السياسى، والسلوك الفردى للشعوب الغربية [٢] .

## حركة المقاومة للاستعمار الغربى فى الفكر الإسلامى

وفى مقابل هاتين الصورتين : برز اتجاه إسلامى فكرى آخر وهو حركة المقاومة للإستعمار الغربى : سواء فى مظهره السياسى أو فيما يستبطنه ويخفيه من الهجوم على الإسلام واضعاف المسلمين . وهذا اتجاه يعتبر كرد فعل مباشر لتوجيه الاستعمار الغربى للتفكير الإسلامى فى صورتيه السابقتين [٣] .

ويعكس هذا الاتجاه مجاهرة دائمة رافضة لمضمون التغريب وكاشفة لأفئته، وهى حرب معلنة ضد عصبية الغرب (الغالب) المتفجرة حيناً والمختبئة وراء لغة مهذبة أحياناً أخرى .

وبينما يساعد الإتجاه المتغريب على استمرار الغلبة للغرب بوصفه دعامة داخلية لها، انطلق أصحاب الاتجاه الفكرى الإسلامى المقاوم للإستعمار الغربى فى عمل دؤوب وتعصب للإسلام كأصل لهويتهم، وعدم قبولهم بالأمر الواقع، ولم يبنهروا بالتقدم العلمى الغربى إلى درجة تدفعهم إلى التخلّى عن الغايات التى حددها الإسلام للعلم والحضارة .

وتتضح أبعاد هذا الموقف فى ملاحظة الأفعانى لمعانى المدنية القائمة جوهرياً على علم متناقض مع الألوهية، فقد قال فى خاطرته : " فلنأخذ من ذكرتم من الأمم المتمدنة، ومكتسباتهم العلمية، وما صنعوه، وعملوه، وكسبوه، وربحوه، وما ترتب على ذلك وماحصل من المنافع والفوائد للبشر من وراء تلك المكتسبات، والمدنية، والثروة، ثم نعدد ما رأينا .

هل رأينا غير مدن كبيرة، وأبنية شامخة، وقصور مزخرفة، ومعامل ينسج ويصنع فيها القطن والحريز .. .. . واحتكار تجارات أنت لهم بثروات، وكنوز ؟ .

ثم هل غير التفنن باختراع المدافع المريعة، والمدمرات، والقذائف وباقي المخربات القاتلات للإنسان، تتبارى تلك الأمم الراقية المتمدنة اليوم ؟ .  
ثم لوجمعنا كل مافى ذلك من المكتسبات العلمية، ومافى مدنية تلك الأمم من خير، وضاعفناه، أضعافاً مضاعفة، ووضعناه فى كفة ميزان ووضعنا فى الكفة الأخرى الحروب وويلاتها هى التى تعلقو، وتفوز. فالرقى، والعلم، والتمدن على ذلك النحو وفى تلك النتيجة إن هو إلا جهل محض، وهمجية صرفة وغاية التوحش " [١] .

ويعبر الأمير شكيب أرسلان عن رفض أصحاب هذا الاتجاه (الفكرى الإسلامى المقارم للاستعمار الغربى) أن يكون الدين ثمناً للتقدم، ويتساءل عن أسباب التناقض المفتعل بين المدنية والإسلام فيقول : " أوريا ترقى هذا الترقى المادى كله وبقية متمسكة بديانة أقدم من الإسلام بأكثر من ستمائة سنة . وكذلك اليابان ترقى هذا الترقى نفسه وهى معتصمة أشد الإعتصام بعقائد وتقاليد هي أقدم عهداً من الديانة المسيحية نفسها بقرون. فياليت شعرى ، لماذا المسلمون وحدهم هم الذين لا يمكنهم الرقى إلا بخلع الدين الإسلامى، كما يزعم بعض اعداء هذا الدين ؟ " [٢] .

وكان لابد لهذا الإتجاه أن ينقد الإتجاه الآخر المقابل له - المتغرب والغربى - وينقذ عناصره الفكرية : سواء من الوجهة المنطقية الإنسانية ، أم من الوجهة الإسلامية. وفى الوقت الذى يقوم فيه بالنقد كان لزاماً عليه كذلك أن يعرض خطة عملية لمقاومته، ومقاومة الداعين له والمساعدين على الدعوة إليه [٣] . ولذلك نرى هذا الازدواج فى الدعوة إلى مقاومته : نرى نقداً نظرياً ، ومنهجاً عملياً [٤] .

## عناصر هذا الإتجاه

ومن أبرز زعماء هذا الإتجاه الإسلامى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، الشيخ جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ - ١٨٩٧م) الذى ترك أثراً عظيماً فى وعى المتورين وصياغة أفكارهم فى أنحاء كثيرة من الشرق الإسلامى .

[١] خاطرات جمال الدين الأفغانى، ص ١٣٩ - ١٤٠، دار الحقيقة بيروت ١٩٨٠

[٢] شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامى، مج ٣ ص ٣٧٣ دار الفكر بيروت ١٩٧٣

[٣] ، [٤] د. محمد البهى، الفكر الإسلامى الحديث ص ٥٩

وعندما يصف جمال الدين الأفغاني المسلمين المتغربين يعتبرهم أكثر خطورة على الشرق الإسلامي من الغربيين أنفسهم، وقد أسهب في تفسير موقفهم وأثره الداخلي.. فيقول في خاطراته إن ماهو " أشد وطأة على الشرق، وأدعى إلى تهجم أولى المطامع من الغربيين، وتذليل الصعاب لهم، وتثبيت أقدامهم، هم أولئك الناشئة الذين بمجرد تعليمهم لغة القوم، والتأدب بأسفل آدابهم، يعتقدون أن كل الكمال إنما هو فيما تعلمونه من اللسان على بساطته وفيما رأوه من بهرج مظاهر الحالات وقرأة السير، ومسير من قطع مراحل من الغربيين في سبيل الأخذ في ترقية أمته، بدون أن يسيروا. في ذلك غوراً أو يفهمو لتدرجهم معنى . ويعتقد الناشئ الشرقي أن كل الرذائل، ودواعي الحطة ومقومات التقدم إنما هي في قومه، فيجري في تيار غريب من امتهان كل عادة شرقية، ومن كل مشروع وطني يتصدى له فئة من قومه، أو أصل بلاده، ويأنف من الاشتراك في أي عمل لم يشارك فيه الأجنبي ولو أسماً، ويسارع لتقديس، وتصويب كل خطأ يأتيه الغريب، ويسهل له كل صعب في مطلبه، ويطلعه على هنات قومه وزلهم، وموقع الضعف منهم، وبالأجمال يكون الآلة القاطعة الفاعلة للغريب في جسم قومه ، والوسيلة الممكنة من الاستئثار في البلاد، واستعباد العباد، بدون أن يشعر أنه سيلاقى شر ما يصنع قبل أمته ، وينزل في تاريخها مع الأذنياء الخائنين . وإذا أحس البعض في شنيع فعلته فإنما يؤثر مصلحته الخاصة ، وتفعه الخسيس المؤقت على صالحه العام مع مجموع من جمعته وإياهم الجامعات الكبرى " [١] .

وقد تحدث الشيخ جمال الدين الأفغاني عن أخذ ما عند الغرب من حضارة ومدنية وعلم ولكن علي أساس أن يكون ذلك في تلاؤم مع الإسلام، أو لأن الإسلام يدعو إليه [٢] وكان يقول : " إذا لم بين تقدمنا ومدنتنا علي قواعد ديننا وقرآنا فلا خير لنا فيه ولا يمكننا ان نتخلص من ربة الانحطاط والتأخر [٣] .

كما حارب المذهب الطبيعي - الدهري - الذي انتشر في الهند ١٨٧٩ م ، وانتقده في كتابه "الرد علي الدهريين" وكان يدعو الي "وحدة المسلمين" و"الي الإصلاح الديني" .

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ ، دار الحقيقة بيروت

(٢) د. محمد أبيه ، الفكر الإسلامي الحديث، ص ٢٨

(٣) تاريخ الاستاذ الامام ، رشيد رضا ص ٨٢ ح ١

وقد تجلي ذلك في آثاره ولا سيما (العروة الوثقى) [١] التي اشترك معه في تحريرها الامام محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) [٢] (الذي سار في ذات الطريق الذي سلكه جمال الدين الافغانى ، فكان واحداً من زعماء مقاومة الاستعمار الغربى ، ومعارضة النفوذ الأجنبي في دائرة العالم الاسلامى . وقد استلهم الامام محمد عبده مبادئ الأفغانى العامة وتوسع في شرحها وتحقق من مدلولاتها في ما اختص بالدين والإصلاح الدينى . كما هاجم الاستسراق مما اضطره إلى الكتابة عن مزايا الإسلام بالنسبة للمسيحية . ووضع منهاجاً تربوياً لفهم اسلام القرآن والسنة الصحيحة " وتناول محمد عبده في جانب الاعتقاد موضوعين رئيسيين :

- تحرير المسلم من عقيدة الجبر مع الإبقاء على عقيدة القدر  
- وإفهام المسلم بأن عقل الإنسان نعمة من الله يجب ان يتلائم ويسير جنباً إلى جنب مع دين الله، ورسائله للإنسان ، وأن إغفال العقل معناه الغض من هذه النعمة " [٣] .

وإذا كان التراجع العثمانى السياسى قد فتح الباب أمام الغزوة الأوروبية، إلا ان الغرب قد أثار العالم الإسلامى والعربى باحتلال أراضيه والسيطرة عليه فدفعه بذلك دفعا قويا للقيام بمراجعة داخلية نقدية [٤] ، وبدأ يسائل نفسه عن ذاته ومكانته ومثله وقيمه وينحث عن دوره من جديد، وهب المفكرون الإسلاميون للدفاع عن الفكر الإسلامى ويحاربون تلك الترهات التى ينثرها الغربيون فى المحيط الإسلامى وبيان ما فيها من ضلال وماتهدف إليه من تحطيم الأمة العربية والقضاء على معنوياتها ومقاومتها .

[١] أنشئت جريدة العروة الوثقى فى باريس وصدر العدد الأول منها فى ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠٠ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ وكان مدير سياستها الفيلسوف العظيم السيد جمال الدين ورئيس تحريرها الأستاذ الامام ص ٢٨٩ ح ١

[٢] يقول الأمير شكيب أن الأفكار فى العروة الوثقى للسيد جمال الدين، والعبارة للإمام (تاريخ الأستاذ) ح ١ ص ٢٨٩

[٣] د. محمد البهى الفكر الإسلامى الحديث... ص ١١٨ (مرجع سابق)  
[٤] الواقع يؤكد لنا أن اليقظة الفكرية قد سبقت هذا الغزو الغربى بأمد طويل ، وبدأت بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى تجديد الدين والعودة إلى بساطته الأولى ، وإذا كان ابن عبد الوهاب قد ولد سنة ١٧٠٣ وقام بدعوته وهو فى سن الأربعين فإن يقظة الفكر العربى تكون قد بدأت قبل وصول الجمعيات التبشيرية الأوروبية بمائة عام على الأقل. (د. أحمد سمايلوفتش - فلسفة الاستسراق - ص ١١٦ طبعة دار المعارف) (مزجع سابق)

## العوامل المؤثرة في فكر الأمير شكيب أرسلان

في هذا الإطار التاريخي، وفي هذا العصر الحافل بالاحداث والوقائع والصراعات السياسية والفكرية والحضارية، نشأ الأمير شكيب أرسلان وتدرجت أفكاره، فقد ولد الأمير في ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٦٩م وتوفي في ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٦. أي أنه شهد الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، كما شهد النصف الأول من القرن العشرين .

### العامل الأول : إتصاله بالإمام محمد عبده والشيخ الأفغاني وتلمذه عليهما

وكان للاتصال المبكر بين الأمير شكيب أرسلان والشيخ محمد عبده أثر هام في تشكيل فكر الأمير الشاب منذ أن كان الأمير طالباً في مدرسة الحكمة ببيروت، وكان عمر الأمير شكيب آنذاك ستة عشر عاماً، وألقى قصيدة طويلة في حفلة أقامتها المدرسة وحضرها الشيخ محمد عبده حيا فيها العرب وأمجادهم والإسلام ومفاخره فصفق له الشيخ الإمام واستبشر به خيراً، وهش للقاءه في مجلسه فانعقدت بين الفتى وبين الشيخ صداقة كبيرة . وتأثر شكيب بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ودرس عليه في "السلطانية"، وتوثقت عرى صداقة متينة بين الإمام وشكيب، فيسمع منه عندما كان منفياً إلى بيروت بعد قمع الحركة العربية سنة ١٨٨٢ ، واتصل به وتلقى عنه حينما عاد الشيخ إلى مصر [١].

" وكان الشيخ يردد في مجالسه ما تلقنه على يد جمال الدين الأفغاني من سعى إلى الإصلاح وحب الإسلام، ونود عن كرامته، وتأليف فيه، وعمل له . وكان الإمام لا يفتر عن الحديث في رفع مستوى الأمة وتقويم أخلاقها والنهوض بها نهضة علمية اجتماعية عن سبيل الثقافة والعمل، في وعى صحيح وفهم عميق لا يسير في تقليد الغرب تقليداً أعمى " .  
والدلائل على قوة تأثير الإمام محمد عبده في تشكيل فكر الأمير كثيرة، فقد تعرف الأمير على فكر الأفغاني أولاً من خلال الشيخ الإمام فأعجب به وردد في كتبه ومقالاته . وقد حث الشيخ على احترام القانون وتحقيق العدالة والمساواة والعمل لإصلاح المسلمين، فعمل شكيب في نفس الاتجاه .

وتحدث الشيخ الإمام عن ابن خلدون فأفاض في مقدمته وشهد بمالها من محاسن في

فهم الاجتماع والتاريخ، وذكر أنه كان يحاضر فيها بمدرسة دار العلوم بمصر سنة ١٨٧٨ فشرع شكيب يعنى بأبن خلدون ويقلده، ثم علق فيما بعد على تاريخه . والإمام كان وهو فى بيروت يشرح الكتب القديمة أو يعلق عليها، وكذلك فعل شكيب، فنشر الدرّة اليتيمة لابن المقفع، ورسائل الصابى، وسيرة الأوزاعى، وغيرها . كما حبيب الشيخ الامام إلى اخوانه قراءة الكتب العربية والغربية المعربة فى مختلف فروع الفلسفة والتصوف والتاريخ والاجتماع والسياسة .

ولاقت افكار محمد عبده هوى فى نفس الأمير، ورأى فى فهمه للعقيدة الاسلامية الشكل الوحيد الذى يرجى أن ينهض بالاسلام بعد أن آل إلى حالة لايرضاها له أي مسام مخلص لإسلامه. وقد عبر الامير عن مبلغ تأثره بالشيخ الإمام وتلقيه عنه فقال : " استاذنا فريد عصره، ووحيد مجده، حجة الإسلام الشيخ محمد عبده ، أكرم الله مثواه ، تعرف إليه محرر هذه الحواشى فى عهد الطلب، أيام كان هو منقياً فى بيروت على أثر الحادثة العراقية وذلك سنة ١٨٨٦، ولازمته وأخذت عنه واستفدت منه بقدر ماوسع فتور خاطبرى ، واستفضت من بحر حكمته ما أمكن أن يناله قصور عارضى، ووجدت فيه الضالة التى كنت أنشدها، والبغية التى كنت أبحث عنها ولا أجدها، ورأيت فى فمه العقيدة الإسلامية الشكل الوحيد الذى يرجى أن ينهض بالاسلام بعد أن آل الى هذه الحال، وان يقلب عثاره بعد أن ظن ضعفاء العقول أن عثرته لاتقال. ومازلت بعد أن عاد إلى وطنه مصر إلى أن أدركته الوفاة رحمه الله أجاز به حبل المكاتبه ، وأوقف على رأيه فى أكثر الأمور جزئياً ، وكلها ، وأستطلع منه طلع الأحوال، وهو يبيت إلى مالا يبيته إلى غيرى من موانح فكره، وذوات صدره " [١]. ولقد سعى الأمير شكيب أرسلان إلى الشيخ جمال الدين الأفغانى استاذ أساتذته الإمام محمد عبده - كما عبر عن ذلك الأمير- وأجتمعت به فى الأستانة سنة ١٨٩٢م بعد أن أتصلت بينه وبين شكيب مكاتبات ومراسلات. ويصف الأمير هذا اللقاء فيقول : "وكنت لما عدت من أوروبا إلى الأستانة سنة ١٨٩٢ ، ذهبت إليه (جمال الدين الافغانى) فى نهار وصولى ، فاستقبلنى برأ وترحيباً ولزمته تلك المدة الى أن اضطررت إلى السفر إلى وطنى سورية ، ففارقته أسفاً وأنا أمنى نفسى بالعودة إلى الأستانة ، لمشاهدته والاستفادة منه [٢] .

[١] شكيب أرسلان حاضر العالم ح.١ ص ٢٨٣

[٢] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الاسلامي ح.٢ ص ٢٩٨ مرجع سابق

وسألني مرة عما شاهدته في أوروبا وأي نتيجة استخلصتها من حال أولئك القوم، لأنه كان فيلسوفاً تاماً لا يرى الجزئيات إلا من خلال الكلّيات، فلما أردت أن أبدي له ما يعن لي في هذا الباب، وكنت يومئذ في أول شبابه لم أجاوز الثانية والعشرين من العمر، غلبتني مهابة حكمته وخشيت أن لا أصيب المحز، فتحوطت لكلامي بشئ من انكار النفس واستنكار أن يكون مثلي ممن يجوز أن يتكلم بحضرة مثله؛ فما رأيته إلا نهض وأمسك بيدي وهتف قائلاً: "أنا أهني أرض الإسلام التي أنبتك" [١].

ويحدد الأمير موقع فكر جمال الأفغاني فيقول عنه: "هو الموقظ الأعظم للشرق، وأن طريقته ستزداد انتشاراً ومبادئه ستطبق في يوم من الأيام الشرق بأجمعه، ... ومن غريب ضرائب البشر أنهم لا يحرصون على آثار عظمائهم في حياتهم معشار ما يحرصون عليها بعد ذهابهم" [٢].

وقد جمع شكيب بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في مجال تأثره البليغ بهما، وكان يرى الأول أستاذاً للثاني، فقال: "إننا في حاضر العالم الإسلامي لم نعظم أحداً في رجال الإسلام ما عظمنا المرحوم السيد جمال الدين الأفغاني أستاذاً للشرق عموماً، وأستاذاً أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده" [٣].

شكل الأفغاني ومحمد عبده إذاً، عاملاً واحداً من العوامل الأساسية التي أسهمت في تشكيل وصياغة أفكار الأمير حتى كان علماً من أعلام الإصلاح في الإسلام، و كاتباً مدافعاً عن حوزته في كل بقعة ومكان، و حلقة أخرى من حلقات مدرسة أطلقها المصلح والفيلسوف جمال الدين الأفغاني.

### العامل الثاني: دفاع الأمير عن الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الغربي

أما العامل الثاني الذي أثر في توجهات فكر الأمير فهو مواجهة الفكر الغربي المتمثل في القضايا التي أثارها الاستشراق مما يعد هجوماً على الإسلام والعرب وشخصياتهم ودينهم ولغتهم وفكرهم وثقافتهم وآدابهم.

[١] شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي ج ٢ ص ٢٩٨ مرجع سابق

[٢] شكيب أرسلان - حاضر العالم الإسلامي ج ٢ ص ٣٠١

[٣] أحمد الشرباصي - شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ص ٧٠

وقد ساهم الأمير بفكره وفعله في مواجهة هذا الهجوم الغربي إلى جانب عدد من العلماء المخلصين والمفكرين الواعين الذين أسهموا بدورهم في الدفاع عما هو إسلامي وعربي حتى ليستطيع المرء أن يعتبر ما أنتجوه خلال مواجهتهم لهذا الهجوم من حيث أسلوبه وغازاته وما فيه من فكر وعمق وثقافة ومنطق أروع ما كتب بالعربية في العصر الحديث

## الأمير شكيب أرسلان أحد رواد النهضة و الإصلاح في العصر الحديث

وكان الأمير شكيب على اتصال دائم بالمخلصين للعقيدة الإسلامية، والتراث، واللغة، والفكر، والثقافة والأدب من معاصريه أمثال محمد رشيد رضا، ومحمد كرد علي والشيخ مصطفى صبري، ومصطفى صادق الرافعي وغيرهم من رجال وزعماء العالم الإسلامي ممن قبلوا مواجهة هذا التحدي الهدام، وجدوا في مقاومته وبيان ما فيه من زيف وضلال، وما يهدف إليه من تحطيم الأمة الإسلامية والقضاء على معنوياتها ومقاومتها وتجدر الإشارة إلى الصداقة التي جمعت بين الأمير شكيب ومحمد رشيد رضا فاتفقا على الهدف المشترك وهو الدفاع عن العرب والإسلام، والعمل من أجل عزة قومهما وتقديمهم وتوحيدهم، واختلفا في طريقة الدفاع وأسلوب العمل، ولم يمنعهما هذا الاختلاف من أن يجعلوا أيديهما معا في سبيل المصلحة العامة.

ويربط الأمير شكيب بين استاذة الشيخ محمد عبده وبين الشيخ رشيد رضا، ويرى أن رشيد من حسنات الأستاذ الإمام الكبرى ويراه الأولى بأن يخلف الإمام في الإصلاح الديني، يقول شكيب متحدثا عن الشيخ محمد عبده "ومن حسناته الكبرى، وأيديه التي ملأ بها طباق العالم الإسلامي برا، أخذه بيد الأستاذ العلامة السيد رشيد رضا في نشر مجلة "المنار" التي هي لسان حال ذلك المصلح العظيم وترجمان أفكاره، فهي والحق يقال أحسن مجلة ظهرت في باب الإصلاح الديني وتطهير الإسلام من شوائب البدع وإعادة سيرته الأولى في عهد السلف. وتأليفه مع المدينة الحاضرة. كما أن الأستاذ السيد رشيد المشار إليه هو الأولى بأن يخلف الأستاذ الإمام للشيخ محمد عبده في مشروعه وفقه الله وسدد خطاه" [١].

والسيد رشيد رضا هو أول من أطلق على الأمير لقب "أمير البيان" وقد بلغ من تقديره لفكر شكيب أن أرسل إليه أحد تلاميذه وهو الشيخ محمد بسيوني عمران يقترح فيها أن يكتب أمير البيان (للمنار) مقالاً بقلمه في أسباب ضعف المسلمين في هذا العصر وأسباب قوة غيرهم من الأفرنج واليابان وعزتهم بالملك والسيادة والقوة والثروة ، وقدبنى الشيخ بسيوني اقتراحه هذا على تلك الأسئلة التي صارت مثار شبهة على الدين عند غير علمائه .

وبالفعل جاء جواب الأمير من خلال كتابه الشهير " لماذا تأخر المسلمون ، ولماذا تقدم غيرهم ؟ " الذى يعتبر بحد ذاته ثورة فى عالم الإسلام وثورة على الغرب نفسه ، وقد جمع الأمير فيه بين براعة المؤمن ومنهجية المؤرخ وحكمة الفيلسوف وحذاقة السياسى ، ونشر الكتاب أولاً فى "المنار" ثم طبع فى كتاب أواخر سنة ١٩٣٠م بمطبعة المنار، وفى أوله مقدمة السيد رشيد رضا يشير فيها إلى الظروف التى أحاطت بتأليف هذا الكتاب بقوله : " اقترحت هذا الاقتراح لحمل أخى وولوى الأمير شكيب على كتابة شيء مثل هذا المنار ، وأنا الذى أنصح له دائماً بتخفيف أعمال الكتابة عن عاتقه لكثرة ما يكتب لصحف الشرق والغرب وللأصدقاء غيرهم، فأرسلت إليه كتاب الشيخ محمد بسيوني عقب وصوله إلي، فأرجأ الجواب عنه لكثرة الشواغل إلى أن عاد من رحلته الأخيرة إلى أسبانية وقد أثرت فى نفسه مشاهد حضارة قوما العرب فى الأندلس والمغرب الأقصى، وشاهد تأثير محاولة فرنسة لتصير شعب البربر فى المغرب تمهيداً لتنصير عرب افريقية المرزوقين باستعبادها لهم، كما فعلت أسبانية فى سلفهم فى الأندلس - فكتب الجواب منفعلاً بهذه المؤثرات، فكان آية من آيات بلاغته وحجة من حجج حكيمته " [١] .

ولقد كان إسهام الأمير شكيب أرسلان فى مواجهة تلك التحديات استجابة لحاجة ملحة ، بعد أن تجسدت أزمة المسلمين فى تخلف مادى وعلمى تفاقم شأنه فبات من بين المسلمين من دفعه اليأس وعدم الفهم الصحيح للإسلام إلى تصديق دعاوى الاستعماريين فى تعاملهم مع المسلمين والإسلام لتكريس وإقع التابع والمتبوع بمنطق "القدر التاريخى المتعالى الذى خص به الغرب" . لذلك بدأ الأمير شكيب بتحديد أسباب ارتقاء المسلمين الماضى قبل أن يحدد أسباب انحطاطهم فى الحاضر .

فرأى أن أسباب ارتقاء المسلمين الماضى كانت عائدة فى مجملها إلى الديانة الإسلامية ، وكان الإيمان العميق بالعتيدة ، الداعية إلى الوحدة لا إلى الانقسام والفرقة ؛ والثائرة على الجهل والجاهلية فى سبيل المدنية والمناهضة للظلم والقسوة وصولاً إلى الرحمة، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان من أجل عبادة الإله الواحد الأحد... كان كل ذلك بمثابة الدافع والمحرك فى افتتاح العرب المسلمين لنصف الكرة الأرضية فى نصف قرن [١] .

" فالقرآن قد أنشأ إذاً العرب نشأة مستأنفة وخلقهم خلقاً جديداً وأخرجهم من جزيرتهم والسيف فى إحدى اليدين والكتاب فى الأخرى يفتحون ويسودون، ويتمكنون فى الأرض بطولها وعرضها " [٢] .

فالدین الإسلامى هو السبب فى إرتقاء المسلمين الماضى الذى نهضوا به وفتحوا وسادوا، فهل بقى هذا السبب فى العرب وتأخروا برغم وجوده وتأخر معهم تلاميذهم الذين هم سائر المسلمين، يجيب الأمير شكيب على ذلك فيؤكد أن المسلمين قد فققوا السبب الذى ساد به سلفهم وأن حالة التخلف التى وصلوا إليها ناتجة عن الحقيقة التالية: " لم يبقى من الإيمان إلا إسمه ومن الإسلام إلا رسمه ، إلى غير ذلك مما كان فى صدر الملة وعنجهية الشريعة " [٣] .

فالأمر شكيب يرى أن وعد الله تعالى بنصر المسلمين صريح وبقى، والله غير مخلف وعده، والقرآن لم يتغير، وإنما المسلمون هم الذين تغيروا" ففضية انحطاط المسلمين فى العصر الحاضر قضية أخلاقية فى المقام الأول، فالدين لم يتغير وإنما المسلمين هم الذين غيروا ما بأنفسهم فكان من العجب ألا يغير الله ما بهم .

" فأين حالة المسلمين اليوم من سلفهم الذين كانوا يتهافتون على الموت الأحمر لإحراز الشهادة، وإذا فانتت فارسهم الشهادة رغم حرصه عليها عاد إلى قومه حزينا كئيباً ، فقد المسلمون اليوم أو أكثرهم هذه الحماسة التى كانت عند آباؤهم، وإنما تخلق بها أعداء الإسلام الذين لم يوصهم كتابهم بها ولقد جد الأمر فى تتبع العلل الأخلاقية التى جردت المسلمين من اسباب الرقى والتقدم وأسلمتهم إلى حالة الانحطاط والتأخر فيرى أن " من أعظم أسباب تأخر المسلمين الجهل، الذى يجعل فيهم من لا يميز بين الخمر والخل، فيقبل السفسطه قضية مسلمة ولا يعرف أن يرد عليها " [٤] .

[١] ، [٢] ، [٣] ، [٤] شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ مرجع سابق ص ٤١ ، ٤٢ ، ٧٥

"ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين العلم الناقص الذى هو أشد خطرا من الجهل البسيط...". [١]. "ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين فساد الأخلاق، بفقد الفضائل التى حث عليها القرآن، والعزائم التى حمل عليها سلف هذه الأمة وبها أدركوا ما أدركوه من الفلاح، والأخلاق فى تكوين الأمم فوق المعارف...". [٢].

"ومن أكبر عوامل تدهور المسلمين فساد أخلاق أمراءهم بنوع خاص وظن هؤلاء - إلا من رحم ربك - أن الأمة خلقت لهم أن يفعلوا بها ما يشاؤون...". [٣].

ويشير الأمير هنا إلى فقدان الأمة الإسلامية لعامل هام من عوامل استقامة الدولة على الصراط المستقيم فيرى أن فساد أخلاق الأمراء ناتج عن عدم قيام العلماء بدورهم الذى عهد إليهم الإسلام القيام به فالإسلام عهد إلى العلماء بتقويم أود الأمراء" وكان قديما فى الدول الإسلامية الفاضلة بمثابة المجالس النيابية فى هذا العصر، يسيطرون على الأمة، ويسددون خطوات الملك، ويرفعون أصواتهم عند طغيان الدولة...". [٤].

وما كان الخلائف والملوك ليرهبوا أولئك العلماء إلا لما كان عليه العلماء من أخلاق فاضلة، وتحليهم بالورع والزهدي والتخلى عن حظوظ الدنيا فلا يهمهم أغضب الملك الظالم الجبار ام رضى، "إلا أنه بمرور الأيام خلف من بعد هؤلاء خلف أتخذوا العلم مهنة للعيش، وجعلوا الدين مصيدة الدنيا، فسوغوا للفاسقين من الأمراء أشنع موبقاتهم، وأباحوا لهم بأسم الدين خرق حدود الدين هذا والعامّة المساكين مخدوعون بعظمة عمائم هؤلاء العلماء، وعلو مناصبهم، يظنون فتياهم صحيحة وآراءهم موافقة للشريعة، والفساد بذلك يعظم، ومصالح الأمة تذهب والإسلام يتدهور، والعدو يعلو ويتمر، وكل هذا أثمه فى رقاب هؤلاء العلماء " [٥].

والأمير لا يعفى المسلمين من مسئولية التخلف فيستطرد فى بحثه عن حقيقة الأسباب التى عملت على تخلف المسلمين وتأخرهم إلى قضايا الاعتقاد، فيرى أن من أعظم عوامل تدهور المسلمين الجبن والبلع بعد أن كانوا أشهر الأمم فى الشجاعة واحتكار الموت... فقد انضم إلى الجبن والهلع الذين أصابا المسلمين، اليأس والقنوط من رحمة الله، فمنهم فئات قد وقر فى أنفسهم أن الأفرنج هم الأعلون على كل حال وأنه لا سبيل لمغالبتهم بوجه من الوجوه، وأن كل مقاومة عبث".

وفى ختام كتابه خلص الأمير شكيب إلى دعوة المسلمين لنذ التشاؤم والإستخذاء وإنقطاع الآمال، وأن يأخذوا بأسباب النهوض والرقى والتقدم التي أخذ بها غيرهم .

وفى معرض رد الأمير على أعداء المسلمين وحججهم يناقش عقيدة "القضاء والقدر" - كما سيأتى موقفه منها بالتفصيل - فيبطل زعم الأفرنج الذين يقولون أن الإسلام جبرى لا يامر بالعمل فيؤكد ويثبت أن الإسلام هو دين العمل لا دين الكسل ولا هو دين الأتكار على القدر المجهول للبشر [١] . فمن أسباب تهقر المسلمين فى العصور المتأخرة فقدانهم كل ثقة بأنفسهم رغما عن مقدرتهم على العمل، واستشهد الأمير شكيب على هذه القدرة على العمل بمشروعى انشاء خط الحجاز الحديدى ونبوغ طلعت حرب باشا فى تشييد بنك مصر والأخذ بمصانعه ومعامله الناجحة. كما استشهد بالأصلاحات التي تحققت فى البلاد المقدسة على عهد الملك عبد العزيز آل سعود فى وقت قصير ما أوجدها الإلهمة عالية وعزيمة صادقة وإيمان بالله وثقة بالنفس [٢] . والأمير شكيب أرسلان يؤمن بأن العلم كفيل ببعث الأمة، العلم القائم على ركنين : العلم الطبيعى و علم الدين فيقول: " فلا بد لنا من تربية علمية سائرة جنباً إلى جنب مع تربية دينية، وهل يظن الناس عندنا فى الشرق أن نهضة من نهضات أوروبا جرت دون تربية دينية ؟ " [٣] .

ومحصلة نظرية الأمير فى نهضة الأمة الإسلامية أن الأمة لا يتم لها النهوض والغلبة إلا بالتضحية أو الجهاد بالمال والنفس وهذا هو العلم الأعلى الذى يهتف بالعلوم كلها فإذا تعلمت هذا العلم وعملت به دأبت لها سائر العلوم والمعارف [٤] ، وإن المضطلعين بالإصلاح غير محتاجين إلى أن يكونوا من كبار العلماء فى العلوم والفنون بل يكفى إذا أوتوا العقل السليم والإرادة النافذة، والتوجه نحو الأعمال لا الأكتفاء بالتمنى والآمال [٥] .

- 
- [١] شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ مرجع سابق ص ١١٠ .  
 [٢] شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ مرجع سابق ص ١٥٦ .  
 [٣] شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ مرجع سابق ص ١٣٩ .  
 [٤] شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ مرجع سابق ص ١٦٣ ، ١٦٤ .  
 [٥] شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ مرجع سابق ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

ويرى الشيخ أحمد الشراباصى أن الأمير شكيب أرسلان كان مسبقاً بالحديث عن انحطاط العالم الإسلامى فى عصره، فقد سبقه عبد الرحمن الكواكبي فى كتابه : " أم القرى " الصادر فى مصر سنة ١٣١٦هـ - ١٨٩٨م حيث يتكلم المؤلف فى كتابه هذا عن العوامل التى أدت إلى انحطاط العالم الإسلامى [١] .

وينتقد الشيخ جرم الرسالة الصغيرة، والإكثار فيها من وجوه المقارنات بين المسلمين بالأمس واليوم، وصياغتها بالاسلوب الصحافى والخطابى العاجل، كما يقول عن الرسالة - وقوله حق - " أنها أشبه بخطبة طويلة النفس فيها من الإثارة والتحميس أكثر مما فيها من البحث والإقناع " [٢] .

والحق أن قيمة الرسالة الحقيقية تكمن فى كونها جاءت استجابة لضرورة من ضرورات عصرها، فكانت بنت ساعته، ويظهر ذلك من استقبال العالم الإسلامى لها، فقد رحب بها العلماء والعامّة وافتوا الأنظار إليها، وحضوا على نشرها وتعميمها. يقول السيد رشيد رضا عن هذه الرسالة : " اضطربت بها بعض دول الإستعمار، وزلزلت زلزالاً شديداً حتى قيل لنا إنها أغرت حكومة سوريا بمنع نشرها فيها، وهى أحق بها وأهلها، فانفردت بهذه العداوة للإسلام دون من أغروها بها " [٣] . وكذلك منعت فرنسا دخول هذه الرسالة الجزائر حينئذ، وجعلت عقوبة لمن يطالعها [٤] .

واقترح الأستاذ محمد تقي الدين أستاذ اللغة العربية فى كلية ندوة العلماء بالهند نشرها هذا الكتاب مصححاً مضبوطاً مشكولاً، ليستوي فى مطالعته الخاصة والعامّة [٥] .

فستان بين كتاب هذا شأنه، وكتاب نشر فى عهد الخلافة، زمن السلطان عبد الحميد يدعو إلى إقامة خلافة عربية من مكة المكرمة.

ومهما قيل فى الرسالة فقد أيقظت الأمة، وحركت العزائم نحو الإصلاح ودلت بصدق على كثير من مواطن الانحلال والضعف .

أما كون أسلوبها أسلوباً صحفياً خطابياً فالسبب أنه كتب لينشر فى مجلة المنار، وكتبه (شكيب) إجابة على سؤال قارئ .

ولا يقبل انتقادها بكثرة الآيات القرآنية التي أشتملت عليها لأن القرآن دستور المسلمين والمصدر الأول من مصادر التشريع لديهم واللجوء إلى آياته وتبيان تحزيراته ووصاياه في موضوع معالجة أسباب تأخر المسلمين من اللوازم الأساسية والضرورات المنطقية لنجاح الموضوع [١].